

روايس

# عبرة التاريخ



« الطبعة الاولى — حقوق الطبع محفوظة »

١٩١٢ — ١٣٣٠

obeikandi.com

# مقدمة

الى عشاق العدل والوطنية . ومحبين الانصاف والمساواة . الى  
الباكين على مصائب الامم . وكارثات الشعوب . اذف روايتي الاولى  
التي تبحث في احوال بولاندا في القرن السابع عشر وكيف قام أبرائيلها  
بها فدافع وانصر . بل كيف يكون الاتحاد ومباغته . والتآزر وقوته  
ومن ثم كيف قسمت تلك المملكة المسكينة بين روسيا والمانيا والنمسا  
وكيف يتعدي الانسان على أخيه الانسان فيسلبه أغلى شيء لديه وهو  
حريته

تلك روايتي أول ما أخرجته فكري تركتها بلا تهذيب لتكون  
تذكرا الى من أيام صغرى اذا ما بلغت يوما ما مبلغ الرجال وهو جل  
ما أريده وتتمناه نفسي .

فمعدرا أيها القوم الكرام ان مرت عليكم بعض الغلطات والعذر عند  
كرام الناس مقبول من  
المؤلف

## ادعاء الرواية

الى روح مؤلف حماة الاسلام . واحلام الاحلام اهدى روايتي  
وأول ما أخرجته فكري  
الى تلك الروح التي اختفت خلف ستار الابدية اقدمها — فاذا  
مانظرت الي هذه افكاري دليلي على نفسي . وانا ما آودت الا ان اكتب  
ما أعقد المؤلف





﴿ مصطفى نجيب بك ﴾

الكاتب المشهور

تبدو عليك مخايل العظماء      وتلوح فوقك صورة الحكماء  
لقد درك والهدي بك مغرم      كيف اضطرت على هوى وعناء  
احمد زكي ابو شادي

obeikandi.com

## شئ عن المهدي اليه (١)

لا أصعب وأقسى على نفس الأديب من أن ينعى اليه  
امام من أئمة العلم واستاذ من أساتذة الانشاء واللغة سيما اذا  
كان المنعى ممن نصبوا فكرهم على ايضاح الحقيقة وتجليتها في  
أجلى المظاهر ، واقفا قلبه على البحث واستقراء مصادر العلل  
الاجتماعية ومدادواتها بانجع الوسائل ، ومعداً ما هو معد من الخير  
الجزيل والنصح الغالى لأئمة في طيات أسفاره التي ينتظر من  
المستقبل أن يعاونه في اخراجها الى أيدي المطالعين فتنبش فيه  
المنية اظفارها ، وتغدو صروح آماله كأنها بنيت على شفير هار  
هكذا كان شأن فقيد النثر والنظم المغفور له مصطفى  
نجيب بك فلقد ألف ثمانية مؤلفات نفيسة وأخذ يشتغل في  
تأليف غيرها وكان عاقدا نيته على أن يتولى طبعها بعد انقضاء  
سنتين من ذلك الحين ، ولكن حل به القدر المحتوم فترك تلك  
الآثار يعث بها الدهر بعد ان كان يضمن بها . وقد بيع بعد

وفاته كل ما كان في مكتبته من كتب نافعة ، ومؤلفات غزيرة  
بالمواد العلمية النادرة ، فوصل الى أهل النبل والفضل أمثال  
احمد تيور بك من علماء القاهرة قليل منها ولا سيما ما أنشأه  
وألفه ، وانتهت جلها الى أيدي افراد تهاونوا بها ولم يراعوا  
حرمة الادب فذثروا بعضها - كما بلغنى - ونسب اليهم

ولم أقف في أوراقى على شئ دبحته يراعتة سوى بعض  
ملاحظات استعان بها على تأليف كتاب يبحث في تاريخ الآثار  
بمصر واسمه « الخرائب والاطلال المصرية » وآخر في  
« حسنات المدنية الاسلامية » غير انها متفرقة وان تكن تدل  
على قدرة الكاتب وليست سهلة التناول او قريبة المأخذ بل  
يعسر عليك ترتيبها ومعرفة قصد الكاتب من بعضها والعلاقة  
التي تربطها بما يسبقها او يليها .

هذا ما لحق بمصنفات ذلك المنشئ المبدع بعد ان سكن  
القبر وجاور التراب . ولقد كان شاعرا ضليعا واديبا قادرا على  
خلب الالباب والعقول بسحر مقاله . يجيد الشعر ولا يكثر  
منه . واذا حرك قلمه بين انامله فما يكتب الا حكمة كهلة ولا

يسطر غير الحق الصريح

واذا رمت ان اصف لك خلقه ذكرت لك الكرم  
والمروءة والغيرة على الشرف والوطنية الصادقة والولاء  
الخالص والوفاء باكمل المعاني غير انه كان متلافا للمال لا يحسب  
غالبا حساب العواقب ولذلك ما كان ليبقى خلفه شيئا من الثروة  
مع انه كان يتناول من عرق جبينه ما يسد هذه الثلمة دون  
عناء او مشقة .

وانى اقتصر للقارىء في هذا الموضع على ما ذكرته  
الصحف يوم وفاته بمدينة الاسكندرية وانقل من بينها ما نشره  
اللواء الاغر يوم الثلاثاء ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣١٩ هجرية  
امتدت يد المنون الى عرش الفضل فانتزعت منه اميرا  
من امراء الكلام . ومايكما من ملوك الكتابة . ملك رق  
النفوس بعبارة بيانه . وتصرف فيها ببراعة بنانه . حتى كأن  
قلمه اذا جرى على الطرس جري بقدر مقدور لا يتعدى محتومه  
فى ما أخذها ومطاركها . فكنت تراها ان صر استمعت  
وانصت . فان وعظ انعطت وان زجر ازدرجت . وان

استفزها لمكرمة فزت . وان هزها لمحمدة اهتزت . هو  
كاتب تلك الرسائل التي كان ينشرها « اللواء » تارة بتوقيع  
« الواعظ » وطورا بتوقيع « حاذق » هو المرحوم مصطفى  
بك نجيب وكيل قسم الادارة بنظارة الداخلية

فقد نامنه طيباء من اطباء امراض الامم . وآسيا من أساة  
كلومها ، كان رحمه الله يرى ان خير الدواء لأعضل الادواء  
تذكير النفوس بجلال ماضيها انتعش أرواحها ، وتفكيرها  
بشرف أصولها وطول منابتها وكرم اعرافها ، ليجري دم الخير  
في عروقها فتماثل من خمولها ، وايقافها على مجد اسلافها وشرفهم  
لترفع رأسها ، واحاطتها بما كان لآبائها واجدادها من نفوس  
للمعالي عاشقة . وهم في السمو راغبة . وعزائم في طلب السعادة  
والسعادة ماضية . لتحمي هميتها . وتهم همتها . فتشط من عقالها  
وارشادها الى الصراط السوي الذي نهجوه ونقتني آثارهم فيه  
فتبلغ من الغاية ما بلغوه : هو المؤلف في هذا المقام لكتاب  
« حماة الاسلام »

عدمنا منه عالما من كبار علماء الاخلاق عارفا بما يصلحها

من فسادها ، وبقومها من اعوجاجها ، عاملا لما يؤصل فيها الفضائل ويستأصل منها الرزائل . هو الذى شغله انحراف

اخلاق المصريين حتى فى المنام ، واشتغل بتدبير مايقومها حتى فى الاحلام ووضع فى ذلك « أحلام الاحلام »

فقدنا منه مؤرخاً عليماً بتقلبات الدهور على الاجيال ، واتصرفات الايام وحسناتها وسيئاتها على الانام ، وله فى ذلك أثر حفظه صدر ( اللواء ) وصانته حوافظ القراء عنوانه :

« وداع القرن التاسع عشر واستقبال القرن العشرين » ولقد كان رحمه الله مشغولاً بتأليف كتاب فى تاريخ محمد على باشا

يتوج به قرنا مضى على حكم مصر واحياؤه لما اندرس من معالمها وكان عهد الى بعض اخوانه مهمة الحصول على بعض أمور

تتعلق بعمله هذا فى غير هذه البلاد ، وعين له مواضعها ومظان وجودها من « الكتبخانات » ولقد قام له هذا الصديق بهذه

المهمة وعثر بجميع ما كلفه بالحصول عليه وترجمه واراد تقديمه اليه فوجده يودع الحياة ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، فبقيت

تلك الآثار فى ظرفها المختوم

وافته المنون رضوان الله عليه وهو بين دفتر يناجيه ،  
وقلم يسيره ، وطرس يحبره : فلقد بعث الينا بعض رسائل  
قبل وفاته بيومين اثنين بقصد نشرها ، ومنها رسالة عنوانها  
« نظرة في بلاد العرب » سننشرها غدا ان شاء الله .

توفي رحمة الله عليه عقب علة في الفؤاد لازمنه الزمن  
المديد ولم ينجح فيها طب الطيب ، فمات في سن الخامسة  
والاربعين وله من الخلف الصالح ولدان اكبرهما في السادسة  
من العمر ، وفيه من مخايل ابيه الذكاء النادر ، والفطنة الباهرة



### ﴿ منتخبات من قلمه ﴾

١ — قال يصف حاكي الصدى: —

مثال القوة الناطقة، من غير ارادة سابقة، يقتطف الالفاظ  
اقتطافا ، ويختطف الصوت اختطافا، مطبعة الاصوات ومرآة  
الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية الى ناحية ، نقل كلام عمر  
رضي الله عنه الى سارية ، أشد من الصدى في فعله ، في اعادة

الصوت على أصله ، كأنه أحرف عن يد الطابع والوتر عن يد الضارب والقصب عن فم القاصب ، يحفظ الكلام ولا يبدله ومتى استعدته منه يعيده من غير أن يبقى لفظا في صدره ، أو يكتم شيئا من أمره ، كأننا حفظ الوديمة ، في نفس طبيعة ، فلو تقدم له الوجود في مرتبة الزمن لما احتجنا في الاخبار الى عنقنة ، ولا في الدعاوى الى بينة ، بل كان يسمعنا كلام السيد المسيح في المهد ، وصوت عازر من الأحد ، وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم ، وانشدوه كلماتهم ، فرأينا به غرائب اليونان وبدائع الرومان ، وربما سمعنا خطب سحبان ، وشعر سيدنا حسان ، بذلك اللسان وأصبح وجود الانسان غير محدود بزمن من الازمان ، لله دره من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ويستخلصه في لحظة ، معيدا لقوله ناقلًا صوته ولفظه .

لقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قاثلا فقل نديم ليس فيه هفوة النديم ، وسمير لا ينسب اليه تقصير تسكته وتستعيده وتذمه وتستجيده ، وتنقصه وتستزيده ، وهو في كل هذه الاحوال ، راض بما يقال ، لا يكلم من تحديث

ولا يمل من حديث نمام كما ينم لك ينم عليك ، وينقل لغيرك  
كما ينقل اليك ، فهو المصور لكل فن ، المتكلم بكل لغة المحدث  
عن كل انسان . المؤرخ لكل زمان . الشاعر الفائر . المغنى العازف  
لا تعجزه العبارة . ولا يجهدہ الاداء . ولا يضره اختلاف شكل  
ولا تباين اصل . بل تعدت شدة حفظه البشرية من اللغات  
الى حفظ اصوات العجاوات . الى حركة اصطكاك الجمادات  
فيا لله من ايها المعجب . ولا أيهما نظرب . امن حاكي  
الصدى وقد نقل صوتنا كما نطقنا . ام من شقيقه المصور الشمسى  
اذ ينقل صورتنا كما خلقنا فترى من فى اقصى اقطار الارض  
وكلانا عن مكانه لم يتحول . ويسمنا حديثه المعنعن ونسمعه  
حديثا المسلسل

٢ -- وله من رسالة يصف نظاره ويشكر من اهداها :

ورد الكتاب المطرز بحلى الكرم . المحلى بجميل النعم .  
واستلمت الهدية . فسلمت يد اهدتها . وحفظت السجايا التي  
لحasin الاعمال هديتها ودامت رحاب لمثل هذه الحسنات فيها  
مجال . والمحسنات بهاء وجمال . والآمال محط ورحال والمقاصد

كعبة اقبال. وطابت نفس أعالي الله ان تماثلها نفس عصام<sup>(١)</sup>  
فإنها نسخت آية الكرم والاقدام<sup>(٢)</sup> بآية الجود والاكرام.  
وفعلت في القلوب بالعطاء والنوال<sup>(٣)</sup> ما قصرت عنه الرماح  
الطوال . وتأملتها فأرتنى ما لا عين رأت . رات واظهرت من  
محاسن المناظر ما أعمرت . وقربت كل منظور بعيد وتلت :  
( فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ) وصفا وقتي  
بصفائها . فلم أشته شيئاً الا جمعت بينه وبينى . وصح علينا قول  
القاتل : ( رأيت بعينها ورأت بعيني ) ثم سرحت نظرى في  
الاطلاق والرسوم . حتى نظرت نظرة في النجوم فلم تخف  
عنى شجرا ولا مدرا ولا نجما ولا قمرا

يزيدك وجهها حسناً اذا . مازدته نظراً

بهاء يخيل لي انها صيغت من ضياء . فلا عيب فيها غير

(١) ابن رُشبر حاجب النعمان بن المنذر ومراده انه شرف بنفسه ولا

يفتخر بآبائه

(٢) يريد به قول

نفس عصام سودت عصانا وعلمته الكر والاقدام

(٣) العطاء

انى نظرت بها فى سماء فضلك الباهر . وافق شرفك الطاهر .  
فلم ينكشف لي بها جودك آخر . لازال كرمك بعيدا حده  
على كل ناظر وباصر . وفضل مناهلك غاية تقصدها الاوائل  
والاواخر

٣ — وكتب يرثى صديقه عبده الحمولى وكان مشهورا  
بكرمه ووفائه ورقة شمائله . وعن ذلك يروى المتأدبون قصصاً  
لطيفة تدل على شهامة النفس التى كانت لذلك الرجل . قال الفقيه :

|                             |                          |
|-----------------------------|--------------------------|
| منى على عهد السرور سلام     | فقد انطوت بجماله الايام  |
| وتقطعت اسباب كل لذاذة       | وانحل من عقد الصفاء نظام |
| نعم انى شق المرائر بأسه     | وتحيرت فى هوله الاحلام   |
| جنت المنية فى الذى نختاره   | فالشجو باد والهجوم لزام  |
| اودى الزمان بمفرد قد كان فى | مهج الانام له هوى وهيام  |
| واذا المنية اجهزت اجنادها   | مضت الضريبة والحتوف قيام |
| لهفى على نفس يقصر كفها      | عن كف كأس الموت وهوزؤام  |
| واراك فى امل كرقدة حالم     | حسن اليقين تعودك الاوهام |
| لهفى عليك مؤملا قد خانه     | امل وغير حاله استسلام    |

وثويت في لحد وقبل حلوله  
يا طامنا ناديت دعوة واله  
لواحسن الليل المكافاة ازدهى  
فنخال ان الليل قد سمع النداء  
فاذا شدا بالاج حاق سامياً  
نغماته مقرونة بصوابها  
تحى الموبىيقى الفؤاد لانها  
وادق من وزن القريض وزانها  
اذربما قد كان ملك قيادها  
ان افهم الارواح سر خطابها  
يبكى الشجي ويقدم البطل الكم  
قد ضم شتى من أغانيك التي  
ذياكم الحامي الذي حفظ الصدى  
خليته جدثاً عليك وانت في  
أودى فأودع كل شاد حسرة  
كدرت في عيني السرور فصاري

لم تلق ليلا قد عراه قتام  
(يا ليل) من كيد بها اضرام  
بالبدر وهو بضوئه بسام  
وقد استطال على الصباح ظلام  
وغداله فوق السماك مقام  
سيات فيها مبدأ وختام  
لغة النفوس حروفها الانعام  
ابدا فلا قطع ولا اصلام  
بيديه وهو بأمرها قوام  
تنعم الارواح والافهام  
على القتال وحبذا الاقدام  
في اسرها الافكار والاهام  
كالصك اذ حفظت به الاقلام  
جنبيه حى لم يرعك حمام  
لما ترحل ظاعنا وأقاموا  
في كل مشهد بهجة ايلام

فاعجب لحزن في مقام مسرة  
 ايقنت ان الدهر بعدك قد عفا  
 ولقد أسنت مصر بعد شبابها  
 منى على تلك الليالي لوعة  
 من كان يدرك أنسها ونعيمها  
 كانت مدينة «مصر» ربعا أهلا  
 في دولة خدم السعد دركابه  
 كانت شموساً للهناء منيرة  
 افلت وكننت سنا شعاع سرورها  
 وطوت نضارتك المنية مثل ما  
 عبثت بك الايام حتى انها  
 ان التي فتكت بروحك قسوة  
 لم يستمع فيك البكاء بمصرنا  
 من للدفين بأن بفرج لحده  
 وهري الديار ومن بهافي انسهم

واعجب لحرب والزمان سلام  
 والدار خلو والزمان عقام  
 وتاجها وأصابها الاعقام  
 فساوهم على المحب حرام  
 وبكى لها أسفاً فليس يلام  
 بك حيث تمرح والزمان غلام  
 وله عليها زمة وضمَام  
 فيها معالم للسرور تقام  
 دوماً واني للشعاع دوام  
 يطوى بأيدي القاصرات لثام  
 لو أدركت لرثت لك الايام  
 قدما شكاهها بلبل وحمَام  
 الا بكاك عراقها والشام  
 ويرى الذي فعلت بنا الآلام  
 سهر النواظر والعقول نيام

٤ - وكتب :-

ان الحكيم الذي ينصب نفسه لتربية الامة يجب عليه ان يدخل بها في كثير من ابواب الرياضات ويريضها على صنوف من مكارم الاخلاق ليتحقق من استعدادها النظري ويظهر له الوجه الذي تصبو اليه، والموطن الذي تألفه، والمقصد الذي تتوجه اليه، حتى اذا دعاها الولوج معه من ذلك الباب الذي رآه صالحا لها لبته لانه اصبح هو وشوقها عليها

وقد رأينا ان الذين نصبوا انفسهم لوعظ أمتنا هذه ونصيحتها قد قلبوها على اوجه كثيرة من التربية والتهذيب فأخذوها بالرفق والدعوة للخير، ثم واجهوها بالزجر والاعنات وضربوا لها الامثال، وحذروها عواقب ما هي فيه ودعوها الى محاذاة الامم ومجاراتها، وهاجوا فيها نار الغيرة وقدحوا لها زند الشوق لكل فضيلة، ثم رأينا ورأوا انهم على طول هذا الزمان لم يصلوا الى كل ما ارادوا بل قصرت بهم النتائج عن كثير من المبادئ الشريفة التي نهجوها وارادوها

تحقق لهم انهم كلما اجتهدوا فسدوا عليها باباً من ابواب

الشر فتح اهل الشر عليها أبو ابا من المفسد ولم يامن فيها العثورة  
ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ، الا قليلهم

ظهر لهم ان الامة لم يكن لها نقطة وسط ترتكز عليها ،  
بل هي في مهب ريح الاغراض سائرة مع كل قائد ، وعلى  
الخصوص لو عزز الداعي لها دعوته بالبهتان الذي اصبح منطقاً  
على اكثرها فما اسرع ان تليه اذا دعاها وتضافره اذا سألها  
ثبت لهم ان في الامة عددا عظيما نسوا ملتهم ودينهم  
ووطنهم ، بل نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فلا بد لهم من مذكر  
يقرع اسماعهم بصوت آخر يكون له في القلوب رنة ، وفي  
النفوس صدى يبعث فيها ميت الامة

تبين لهم ان في حواس الامة خدرا جعلها لانتاثر لصاحبها ،  
كصاحب الغاية الذي تعيره الصبيان بها فيتألم منهم في أول  
أمره حتى يضرب قلوبهم ، ويشتم بعيدهم ، ريثما يعرف ان  
الناس تسامعت بهامته واشتهر بها فيسكن ويضحك على نفسه  
كما تضحك الناس منه

ولا عجب في هذا لان فقدان الفضائل وارتكاب اضرارها

وسلوك الطرق المبتدعة ، وانتقاص الاخلاق ، ونسيان العوائد الجميلة ، والافراط في أسباب الحضارة من الرياش والترف ، والتناهي في عدم القناعة ، بدل الخلق من أصله ، وحول العالم بأسره ، وكانما خلق جديد ، ونشأة مستأنفة وعالم محدث .  
نعم يجب على الناصح ان ينادي في الامة بذلك الصوت من غير ان يدعوها لليأس ، أو يسد عليه باب الامل ، أو يقطع عنه طريق الخير ، أو يمانعه في وصول النفع ، فإن أبواب الصلاة لا تحصى ولا تستقصى يعرفها الناصح الامين ، والواغظ المشفق يوجبها لتحقيق الخير والنفع ان شاء الله .  
وان من ابواب التريية التي لم تقرر ، وطرقها الجسيمة التي لم تسلك ، وشرعها الغزيره التي لم تقصد ، دعوة الامة للظفر في ماضي امرها واولية شأنها . لنعلم من هي . عساها تخجل من ان تكون خاتمة سوء لذلك المفتتح الشريف . عساها تأسف على حالها من كونها اصبحت بمنزلة السفينه ولي ملكا يحلم بحسن سياسته ورزق سعة من المال فلم يدبر امر تهيئة هذا الباب من احسن الابواب التي تشق افكار الامة

وأقرب ما تربي على خيرة طباعها ، فإن تذكرها بتجدها القديم .  
وتتمثيل عزها السالف لها ، وتشخيص مجدها الشاخص امام عيونها  
يدعوها بلا شك للتنافس بخلالها الحميدة السابقة

احسن رادع للانسان عن شهواته ان يلتفت وراءه فيرى  
في امته وملتته العلماء والحكماء والعظماء والحكام والقوادع عاشوا  
ولا شغل لهم الا مجدا اقاموه ، وعزا شادوه ، وشرفا حفظوه .  
واكبر مسهل له لاحتماله الضيم والذل جهله بحالة نفسه ونسيانه .  
مجد آباءه واجداده ، حتى تسرت عنه كرامة اخلاقهم وتحجب  
عنه جميل طباعهم ولم يذكره مذكر بسابق اعمالهم الشريفة .  
انه لا يانف ابداً من اتيان الدنيئة وعمل كل ما يخالف تلك  
الطباع الجميلة والاخلاق الطاهرة

لذلك ترى الدهاة من الفاتحين — خصوصاً رجال الممالك  
الغربية الآن الذين لا يغفلون عن تجربة ولا يفضون عن فرصة —  
اذا فتحو بلدة اسلامية او احتلوها تسلطوا على اهلها فأنسوهم  
دينهم وعوائدهم ولغتهم وتاريخ حياتهم ومجدهم واستبدلوهم بذلك  
شيئاً آخر ، فتراهم اذا نسوا تاريخ حياتهم واشربوا في قلوبهم

تاريخ حياة غيرهم ، ذهب كل فريق منهم بما اشتبه وشبهت  
النفوس على ما سبقت اليه وبدأت على الامة أخلاق منكورة  
مبتكرة بعوائد غريبة لا تنسب بالمرّة لسوابق عوائدها وتقرّبوا  
من تلك الامم الطارئتين بكل طريقة، وابتعدوا عن ذلك الاصل  
الشريف الذي هم منه

ثم يتبع ذلك تقلص ظل الدولة الحاكمة وفل حدها ووهن  
سلطانها ، وتتداعى للتلاشى والاضمحلال وينتقص من عمراتها  
ويندرس من سبلها ومعالمها ، بمقدار انحراف رعيها عن  
عوائدها الشريفة

ثم تنهاى الامة في الفجور وتتفانى في البغى والضلال حتى  
تعود باللائمة على اصل دينها وعوائدها واخلاقها ، تقول وهي  
لا تستحي من الله ولا من الخلق ولا من نفسها انها ما أخذت  
الا من جهة تقصير دينها وتقاليده عن مقتضيات الحياة المدنية  
ومستلزماتها وافرادها يجهلون غاياته البعيدة في المآخذ والممارك  
يودون من صميم افئدتهم ان لو استبدلوا بطبائعهم وعوائدهم  
شيئا آخر اخرجوا من ذلك الجنس كما هو واقع الآن من

بعض اهل هذه البلاد المصرية ووقع امن قلبها في كثير من بلاد الاسلام كالاندلس وغيرها

عذر اولئك انهم يغدون ويروحون بين رجلين: اما عدو لهذه الملة يدعى عدم ملائمة دينها للمدينة الجديدة ( ك بعض فلاسفة هذا الزمان ) واما جاهل تاريخ حياتها فلا يعرف منها شيئا لا خيرا ولا ضرا ( ك اغلب شبان هذا العصر )

لذلك هم يفرون من النسبة لهذا الدين ، ويتجنبون القرابة لأمنه وملكه لانهم اقل الناس دراية به ومعرفة بفضائله ، لا يعلمون وهم اهل مكرمة له يعدها المنتسب منهم اليه مفخرة اذا نازعه منازع في الانتساب اليه

ينبغي لهم ان يتألموا من ان يكونوا مسلمين لانهم لا يدركون للمسلمين فتحا أبلوا فيه بلاء حسنا ، ولا يعرفون لهم حربا ولا ضربا ، ولا يتحققون في اى بقاع الارض نشأ المسلمون وفي اى جهة كانوا شرقا أم غربا ، ولا يحصون لهم عدد ايلعلموا انهم وهم على قلوبهم فاجأوا حصون الممالك البعيدة ومما قل العواصم النازخة فأنزلوا حماها من عروشهم وبثوا فيها

معالم دينهم وصيروها حنيفة بعد ان كانت جاهلية  
كيف لا يأتقون من المسلمين وهم يمتفدون انهم قوم  
نشأوا وسط البداوة لا يعرفون غير جوب القفار وقطع الاودية  
عاشوا في جهالة وماتوا في جهالة؟

لا يعقلون ان جميع مكارم الاخلاق انما هي منتزعة منهم  
مأخوذة عنهم ، وان ما يدعيه المدعي من الخلال الحميدة كالعدة  
والرحمة والشفقة والعدل والانصاف والاحسان انما هو مجاز  
بالنسبة له حقيقة بالنسبة اليهم ، وان هذه الامة جاهلية كانت  
و حنيفة لم تفارقها مكارم الاخلاق كحفظ الجار والجوار  
ومراعاة الشرف والذمة ، واحقاق الحق وقول الصدق ،  
ومحاسن الاعمال وجميل الخصال

من يعلمهم ان ماتهم هذه هي اول من تنافس اهلها في  
الخير وتحدوا غيرهم بخلال الكرم كالنفوس الذلات والاحتمال  
من غير القادر ، والقري للضيوف وحمل السكل وكسب المعدم  
والصبر على المكاره والوفاء بالعهد . وبذل الاموال في صون  
الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف

عند ما يحددون لهم من فعل أو ترك، وكرامة اهل الدين والحياء  
من الاكابر وتوقيرهم واجلالهم ، والاقياد الى الحق مع الداعي  
اليه وانصاف المستضعفين ومنع التبذل في اموالهم، والتواضع  
للمساكين واستماع شكوى المستغيثين والتجافي عن الغدر والمكر  
والخدعة ونقض العهد

من لهم بان يتحققوا ان ملتهم هذه نشأت على هذه الفضائل  
التي هي أجل وأكمل خلق السياسة حتى استحقوا بها أن يكونوا  
ساسة الامم التي تحت ايديهم ، ولم يوجد ذلك فيهم سدى ولا  
عيبا وان الله قد تأذن بوجوده فيهم لوجود علاماته في قبيلهم  
من يدهم ان رجال الدين الاسلامي كانوا خير مجتمع  
لتأسيس قواعد الحرية والاخاء والمساواة ، وان اهلهم الذين  
جاءوا القفار وقطعوا الاودية وركبوا ثبج البحر لفتح باب العلم  
والانتفاخ به وانه لم يزهر في دولة ازهاره في دولتهم ، ولم يعتز  
كعزته في سلطانهم ، حتى تقوّت حجته وانتصر لواؤه واذعن  
الناس لقوته وأشرقت عقولهم بنور برهانه ؟

لا بد لهم من مذكر بذلك كله ليعلم المتوسدون سرير الملك.

والحاملون للواء الدولة والمباشرون للامر انهم لم يتناولوا  
لهذه المراتب عن تطفل ولم يرثوها عن كلاله ، وليتحققوا انهم  
أهلها وان الفضائل التي أخذت في الذهاب عنهم والملك الذي  
صارت الاعداء ترتقب زواله من بين ايديهم انما سببه جهلهم  
بتاريخ حياة قادتهم وسادتهم ، وعدم علمهم بفضيلة اصولهم  
وعشيرتهم ورضوخهم ان لا يناهضهم في الشرف والنسب  
وتجاذبهم حبل انقخر والمجد مع من لا يدانيهم وحبهم تقليد  
سواهم واستبدالهم عوائد اممهم وأجياهم بعوائد غيرهم



## تمهيد

خذ بيدي ايها القاريء الكريم شرقيا كنت او غربيا  
وانخطو خطوة واسعة في عالم الخيال نترك اثناءها مصر ووطني  
وبلادي العزيزة واهبط بنا في صميم اوروبا . ثم اصعد معي  
حسبا شاءت ارادتك في ( بالون ) او طائرة هوائية

دع مطيتنا ترتفع ارتفاعا هائلا في الجو حتى نتمكن من  
استعراض القارة الاوربية كما نتمثلها على الخرائط الجغرافية  
اذا تيسر لنا كل ذلك فالق بنظرك على ذلك العالم الشرير  
الذي يطلقون عليه اسم المدينة والحضارة وابحث في مخيلتك عن  
اسم ( بولاندا ) تلك المملكة التي كانت تتقلب في نعيم الحرية  
والاستقلال فقلب لها الدهر ظهر المجن وتركها سلبية  
السعادة والهناء

اتعرف بماذا ابتليت ؟

انقض عليها الدب الروسي وفقر فاه وازدرد ثلثها بجشعه  
الاستعماري فنكل بها وجرعها كوؤوس الظلم والاستعباد الاشعبي

ووحشيته المتناهية

ومن ثم انحط عليها النسر الالماني فانتشل بمخالبه احادة  
نصف ما تركه سابقه

وبعد ذلك اتعرف ماذا جرى ؟ تجرأت النمسا فمدت  
يدها الآتية فسلبت ما بقي من ذلك الهيكل المقدس وراحت  
بولاندا التهمة ضحية اعداء الانسانية

محيت بولاندا من خريطة العالم السياسى . وعفت اثارها  
ولكنها لم تمح من قلوب ابنائها المخلصين العاملين لاسترداد  
وحدتها

ايها الانسان ما اشد كفرك وجحданك . ماذا ؟ اهل  
ضائق بك . بلادك الرحبة . وارضيك الواسعة فصوبت  
سهام انتقامك الى اخيك الانسان لتسلبه ماله . وتسرقه حياته  
حتى زهد الحياة . ورغب فى الموت . واخذ يردد قول الحكيم  
« ما أجمل الحياة لولا لؤم الانسان »

فيأثمها القارئ الكريم الصاعد معي ايري ما فعلته يد  
الانسان بأخيه الانسان . بل ليري ما اجترمته يد الظلم والعدوان

لا . أستغفر الله بل ليرى فظائع الجشع الاستعماري ومنتهى سفالته  
اذا ذكرت الممالك المسكينة التي قضت عليها احكام الدهر  
ومشيئة الزمن ان تموت وتعدم فاذا ذكر بولاندا في اولها .  
اللهم رفقا انك تنزل الخلق من رحم امهاتهم احرارا فيأتي  
من فسد من عبيدك ويستبد بهم ويربهم الموت عيانا . ويكيل  
لهم بصاع الظلم حتي يرهق ارواحهم .  
فأهدهم يارب العالمين . انهم كانوا من الضالين .

## الفصل الاول

كوبريلي احمد باشا

كانت سنة ١٦٥٦ ميلاديه سنة ويل وثبور . بل سنة ظلام  
ومصائب على الدولة العثمانية . فان القائمين بالامر فيها كانوا  
من ذوى الاراء الضعيفة . والافكار الواهية بل على كل حال  
كانوا ضعاف الارادة

في تلك السنة اظلم جو السياسة واكفهرت سماؤها فهاجم  
اسطول البندقية ( فنيستا ) جزيرتي لمنوس وتزيدوس واحتلتا  
احتلالا انتهي بالقبض على ازمه الامور فيها .

ومن ثم جر الطمع اولئك المشاغبيين السفله فهاجموا الدردنيل  
واحتلوه رغما من مناعته فهددوا القسطنطينية . امل الاسلام وقوته .  
ولكن ابي الله الانصرة الاسلام على اعداءه فقيض له  
من ابنائه عائلة كوبريلي الالبانية فنجتها من خطر محقق بها  
كادت تركبا تضيع بسببه

وكان رأس تلك العائلة كوبريلي محمد باشا وهو رجل ولا  
كالرجال له حنكة الشيوخ وهمة الشبان . الف الدهر وعاركة  
كان في الثمانين من عمره حين قبض على أزمة الرئاسة  
فابدى من سياسة المحافظة على المملكة خير سياسة . فكان خير  
حاكم اخرج للناس في ذلك العهد . كان عادلا محبا لخير الامة  
العثمانية . ناشر العدل والمساواة في انحاء البلاد متخذا الحرية  
قاعدة له يسير على منهج الخلفاء الراشدين متبعا قاعدة الشرع  
الشريف يسير على طريقها القويم

بدأ هذا الشهم حياته السياسية بتغير سياسة الدولة فبدلاً  
من اتباع سياسة سليمان القانوني والرجوع إليها في صداقة فرنسا  
وغيرها ابتدأ بتغير دفتها وسار ميها سياسة الوحدة أي اتباع  
تركيا طريقا تكون فيه بعيدة عن التأثير بسياسة أي دولة من  
دول أوروبا

أما سياسته الداخلية فكانت مقصورة على تنظيم المديرية  
والمقاطعات وأقامة حكام يراعون العدل في نظامهم. والتؤدة  
في سياستهم والحنكة في أمورهم

وقد باشر طرد الاسطول الفينيسي عن لمنوس وتيدوس  
فأنجلوا في اقرب وقت تاركين الاوطان لاهلها. والبلاد لسكانها  
وبهمته المعهودة ضرب بيد من حديد علي ثورة كان  
للاذكشارية يد فيها فاسكتهم وأمن اضطراباتهم

وعلى كل حال فانه احيى تركيا حياه طيبة والبسها ثوبا  
قشيبا خاطته بد الحنكة السياسية. والتدبير والعدل والروية  
ولكن هو الدهر لا يؤتمن وفي قوسه منزع للسهم  
فان المنية فاجأت هذا البطل سنة ١٦٦١

تولى بعده الصدارة كوبريلي احمد باشا ابنه الاكبر  
فكان خير شبل خير اسد

هو ذلك الرجل الذي توجنا باسمه الجليل ( الفصل  
الاول ) وهو ايضا قد اتبع سياسة الوحدة فكان لا يحيد  
عنها قيد شبر .

ابتدأ في جهاده لرفعة المملكة العثمانية بتجريد جيش يبلغ  
عدده نيف ومائتي الف مقاتل وهاجم النمسا والمجر .  
وما بلغ هذا الخبر مسامع فرنسا حليفة الاتراك بالامس  
حتى ارسل لويس الرابع عشر ثلاثين الف مقاتل ليساعدوا  
النمسا بالنسبة لما أبداه كوبريلي محمد باشا من قطع العلائق معه  
واتباع ابنه سياسته .

كان قائد النمساويين في ذلك الوقت منشكو كولي الايطالي  
فانتصر على الاتراك بعد واقعة شابت لها ناصيته . وتلك  
هي واقعة سان جوتار على نهر الراب .

ولكن رغما عن هذا الانتصار فإن الفوز الحقيقي كان في  
جانب الاتراك .

فقد خاف الامبراطور ليوبولد امبراطور النمسا وقتل  
سطوة لويس وتدخله فمقد صلحا ابرمه مع احمد باشا في مدينة  
فاسفار سنة ١٦٦٤

فقال احمد في هذا الصلح حصنا في المجر . واحتلال ترانسلفانيا  
. اذار بعد ذلك هذا البطل وجهه فوجد ان الاتراك اراقوا  
دماءهم الزكية في جزيرة كريت وان قنسيا قد احتلتها . فجرد  
جيشا وحاصرها سنة ١٦٦٩ وهاجم القائد الفينيسي مروسيني  
واضطره للتسليم وعمل صلح  
انتهى من تلك الحرب . فذهب الى القسطنطينية ليستريح  
من وعثائها فلم يستقر حتى هبت في وسط اوروباريج تحمل صراخ  
قوازيق الاكرين وتبلغ الامهم الى جميع ممالك اوروبا .  
وقد استغاث اولئك الاقوام باحمد باشا فاستعد ليحارب  
بولاندا وينصف اقوامها .

ونحن انما جئنا بتاريخ ذلك البطل هنا ليكون منسجا مع  
بقية الحديث

ندع الان تلك الوقائع والمعاهدات . والحروب والاغارات

ونرجع الى القسطنطينية محط رحال آل عثمان بهجة الاسلام  
وقرة عينه

سراياها القارية في ناحية بيوكدره تلك الناحية المشهورة بحمال  
موقعها . وطيب هوائها . وحسن اخلاق سكانها . جل ينظر ك  
في انحاءها تجد في الشرق على شاطئ البحر قصر اشايخ البديان  
على الاركان مرمرى العمدة . نخم الاثاث . حافل بالآله . عامر  
يصحبه . ادخل اليه تجده ملان بالخدم والحشم . ولا عجب فهذا  
هو قصر الصدر الاعظم ثاني رجل في الاسلام

وعنا الان من وصف داخل القصر وسر بنا الى اوسع  
قاعات الدور الاسفل تجد غرفة مفروشة على النمط الغربي المحض  
جاس في صدرها رجل وخط الشيب ناصيته . بشوش  
الوجه ربع القامة كبير الشاربين . ينبعث الذكاء ومن عينييه . تدل  
ملاحظة على التؤدة والروية وهو رجل الدولة ومصباحها .  
وقائدها وهاديا هو . احمد باشا كوبريلي

وامام ذلك الوزير جلس رجل يدل لباسه على ان قوزاقي  
من سكان الاكرين ابتداء الحديث بينهما فكان كما ياتي

قال القوزاقى — انا لم نلجأ لجناب الوزير الكبير الا ونحن على علم تام باننا سنلاقى عضدا قويا . وكنفا نحتجى به فتنجوا من مصائب كادت تقضى على حياتنا لسوء معاملات النبلاء انا واستعبادهم ايانا كما كنا خلقنا لنكون لهم خدم وعبيد .  
— وهل هناك ايها الرجل فرق كبير بين الشعب وما

يسمونهم النبلاء

— نعم يامولاى فاني اصرح بذلك والاسف بقطع نياط ذلك القلب المسكين الذى انما يبكي على دولته التى سوف يمحىها حكم الدهر بل حكم حكامها السفلة الذين ينقادون الي ما يفعلون بطمعهم الاشعبى . واستبدادهم المميت

اصرح يامولاى ان نبلاء بولاندا يرون في انفسهم حكام المملكة واصحابها يستعبدون الشعب ويجرونه بيد من حديد سوف تقذفنا واياهم في هاوية التعماسة والشقاء . انهم يامولاى يقودون الشعب للعمل بلا اجر . يكتمون من يقول الحق يقتلون من يعارضهم . يسوقوننا للموت كالاغنام للذبح .

— ولكن اهل فقدت العدالة . وساد الظلم . وعدمتم

محاكم تنجيكم مما انتم فيه اليس في الامة من رجل بمعنى الكلمة  
يقودها حيث ترقى وتعتز .

— ان لبولاندا يا سيدى الوزير مجلسا يطلق عليه اسم  
«الديت» وهناك تنفيذ القوانين ويصدق عليها. هناك يحكمون  
على الشعب حكمهم الذى لا يقبل النقض والابرام . ولكن  
الغريب المزرى بشرف الامة البولانديه هو انه اذا تغيب  
نبيل وقت التصديق على قانون بل كان حاضرا وعارض . فان  
ذلك القانون يعد لاغيا . فهم والحالة هذه يصدقون على قوانين  
في صالحهم اكثر مما هي في صالحنا . فهم في نعمة ورفاهية . ونحن  
في نقمة وبلاء

— يا للفظاعة أهل الانسان يفعل ذلك باخيه في الانسانية  
. وشريكه في المرافق الجيويه . ولكن على كل حال انكم استغنتم  
بتركيا وهي ستعينكم وهي في غنى ايضا عن اية مساعدة حربية  
كانت او مالية

ولكن الانسان بطبيعته ميال الى صالح نفسه بخلافة  
السلطان اذا رأى مثلا ان فتح بولاندا لا يكلفه الا القليل من

المال والرجال ما دمتم انتم مساعدي ليخلصكم من رق واستعباد  
فهو لا يرفض ذلك ابدا ونحن ان هاجمنا فأنا نهاجم لصالحكم  
فلا يصح ان نصب ونقمب وانتم على مهاد من الراحة نأمن  
فافصح لي عن مواضع الضعف فيكم. عن حصونكم واحوالها  
عن عدد جنودكم. عن قواكم المشاهير. حتى ندبر للامر عدته.  
ونحارب على بيئة.

وهناو دخل عليها ثالث وحقق النظر الى وجهه القوزاق  
لمعجب من منظره فانا. كان احر الوجه بدرجة غير محدودة.  
وذلك انما لانه كان يخون وطنه. ويلقى باسرا ره الى غريب لا  
يحق له ان يطعم عليها. ولكنه في هذه الحالة يبوح مضطرا بحكم  
المعاملة التي ياتماها في بلاده.

وبعد دقائق معدودات رفع القوزاق رأسه وقد القى الى  
الوزير الكبير كل ما اراده ثم تابع حديثه وقال  
واني احذر سيدي الوزير من نائب حر اسمه سويسكي.  
شديد الغيرة على مصالح بلاده يتنبأ له الكثيرون بانه سوف  
يكون عضدا قويا ابولاندا وينجيها من عدو سوف يتضمنها بين.

اشداده خضمة الأبل نبقة الربيع

-- اناسنكون على حذر اكثر من اللازم وبعد شهر او

أقل ستري ملائكة الرحمة متقدمة جيش امير المؤمنين الظافر .

وسترون كيف ينتصر آل عثمان للعدل والحق والانسانية .

انتهى الحديث بينهما على هذه الصفة فقام مندوب القوزاق

متمهلا الى ان خرج . وهنا خلا الجو لذلك الرجل الكبير الذى

تعلق عليه الدولة آمالها جلس يمين الفكر فيما هو قادم عليه

وجعل يحدث نفسه قائلا .

— أى احمد الم يزل علم السعد خفاقا . وما برحت من

الفائزين . وانت يا أبى نعم فى قبرك مستريحاً . وانت ايتها الروح

استقري فى قبرك مطمئنة . واعلمي انى متبع وصيتك لأحيد

عنها أبداً . تلك الوصية التى نقول لى فيها . « اياك والركون

الى اعداء الدين . وطع فى الدنيا اثنين ربك ومملكتك . واسع

خير امتك ودولتك » فانا باذن الله منجز وعدى ومبلغ بدولتى

مقرها الذى ينبغى ان تكون فيه .

وبولاندا لا بد من افتتاحها . وانى أرى الطريق تفتح

أمامي اذ لا أسهل من افتتاح مملكة تنافر عنصراها وانطبق  
عليها قول السياسي « فرق تسد » . مملكة ضاعت او اصر المحبة  
والاتحاد بين افرادها . مملكة نصرت الظالم وطمست العدل  
مملكة قبض على ازمة امورها امير ضعيف ونبلاء اقوياء يديرونه  
كما يشاءون

وهنا دخل عليه خادم غرفته الخصوصي سعيد منبثا ان  
هناك حاجبا من يلدز يستدعيه لمقابلة خليفة المسلمين فقام توا  
مليا الأمر فلندعه سائرا حيث المهابة والجلال . والخلافة  
الاسلامية باسمي معانيها . ولنسر الى بولاندا نرى حال مملكة  
ضاعت وانمحت .

## الفصل الثاني

### الديت

الديت اسم اطلق على ذلك المجلس النيابي الذي أخذه  
البولانديين بعد شق الانفس . بل بعد ما جاهدوا جهاد

الاتراك سنة ١٩٠٨ . ولا غرو فانهم ما كانوا يحاربون عبد الحميد واحد بل كانوا يحاربون ما يفوق الف نبيل يماثل كل واحد منهم طاغية كهذا الطاغية المستبد .

اخذوا ذلك المجلس الذى ليس له من المجالس النبائية الا اسمها . وانما اعطاه سالهم اياه لیسد افواها . لا صراخها آذان العالم المتحضر . وازعج اذنها قلوب المتمدنين من ممالك اوروبا بل ايقظ من كان نائماً لم يسمع ان بولاندا لا تزال تحت اثقال من الظلم راسخة .

كان اعضاء ذلك المجلس كلهم من النبلاء لا يصدقون على قانون يكون مخالفا لمصالحهم ولو قامت ثورة كسورة الفرنسيس تنتهى بقتل زعماء الحكام كما انتهت بقتل لويس وماري .

فهم انما كانوا يلبسون اسكل حادثة لباسها ويمثلون على مسرح الاطماع رواية هم الفائزون فيها

كان اولئك الذين ليس لهم من النبل الا اسمه لا يصدقون الا على قوانين توافق مشاربهم وثلاثم مصالحهم . فقضوا

على الشعب المسكين واضاعوه .

فاصبح عدوا لهم . وهكذا غدامن السهل اقتناص بولا ندا  
وضربها ضربة قاضية في حريتها واستقلالها ما دام التنافر اخذا  
محلا في قلوبهم متمكنا في افئدتهم فالنبلاء يستعبدون الشعب  
استعباد العبيد ويجرونه بل يسوقونه كما تساق الشاة للذبح بل  
كما كان فرعون يسوق المصريين للعمل في بناء الاهرام بدون  
اجر فكافؤوه بعدم دفنه فيها

وهكذا يتملك المستبد الرقاب ويتحكم بالعباد الى ان تحين  
لهم فرصة فيهجمون عليه هجوم الذئب الجائعة على منقلبيها  
فيزلزلون عرشه ويجعلونه مزعزع القوائم .

ندع الان النصيح لذلك المستبد السافل الذي لا يجد  
عبرة في هدم عرش شارل الاول وسفك دمه . ويزر رأسه  
بسيف الجلال

بل لا يجد عبرة بانتصار الشعب على لويس السادس عشر  
وقته اياه مع عقيلته ماري انطوانيت التي شربت الكاس نفسها  
بل لا ينتصح بالقريب الذي ملأ آذان العالم المتمدين

من قلب عرش المستبد الى مجلس شورى وانزال طاغية  
التسطنطية من عرشه ونفيه الى سالونيك .

ندع كل ذلك ونسير بالقارىء خطوة كبيرة تتركها  
دار السادة ونخط برحالتنا فى وارسو عاصمة بولاندا وحاضرتها  
هناك بعد ان نستقبل المدينة من الجهة الشرقية شارع  
يقال له شارع جونسكى اذا توسطته وجدت به بنيا ناخما يكاد  
يسد منافذ القبة الزرقاء وقد اطلق عليه ذلك الاسم الذى  
صدرنا به الفصل الثانى .

## الديت

فى الخامس من شهر ( ا ب ) سنة ١٩٧٢ كان السائر فى  
هذا الطريق يلفت انظاره كثرة الازدحام حول باب الديت  
وذلك لان اليوم موعد انعقاد جلسة للمباحثة فى تقرير ضريبة  
جديدة . والمناقشة فيما يتعلق بقانون جديد سينشئونه ضد  
قوازق الاكرين .

أما الضريبة فسنعلم قريبا من أى نوع هى

أما القانون فكان يقضى على كل قوزاقى وجد في منزله  
اجتماع واشتبه فيه ان يجازى بدفع غرامة لا تقل عن خمسمية  
روبل وان توانى عن الدفع فأمامه خمسة اشهر يقضيها بعيدا  
عن عين اخوانه مسجوناً .

وهذا هو ما كان يخرج به اولئك المستبدون من القوانين  
القتالة للحرية الشخصية والعمومية .

خذ بيدى أيها القارىء الكريم وادخل بنا الى ذلك  
المجلس لترى فظائع تعصب النفس للنفس . بل لترى الانانية  
وكيف يكون مبلغها . بل لتتظر مبلغ احتقار الانسان لأخيه  
الانسان

هناك بين أوسع قاعات المجلس قاعة تسمى قاعة الجلسات  
فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى نوافد نبلاء القوم ليقرروا  
القوانين ويصدقوا على المواد. ويضربوا الضرائب على شعب  
آن من الظلم وبلغت شكايته عنان السماء

انتصفت الساعة التاسعة فنادى مناد بالانتظام فسكن  
الجميع وانتظروا اقوال رئيس المجلس الكونت سمولنسكي حيال

هذه القوانين والضرائب

قرع جرس فقام الرئيس خطيبا فقال

أيها الاخوان . هنا اجتمعنا اليوم لنقرر ما يدفع عنا

صرخات ذلك الشعب الثقيل الذي يريد الا ان يكون صاحب الامر والى لا يلوى على اى سيد كان .

ونحن انما نسينا ذلك المثل العربى القائل « لا تطعم العبد

السكرع فيطعم في نبل الذراع »

فنحن بيدنا زرعنا مراكزنا . واثرتنا عليها ذلك الحيوان

الممقوت فقد اعطيناه ما اراد فظن اننا طوع امره فطلب الزيادة

وجب اذا ايها الاخوان ايقافه عند حده خيفة ان يمتد لهيبه

المحرق فيزعزع الملكية والنبلاء ويهدم ما شيده اجدادنا

( تصفيق حاد من الشمال )

فكرت في ذلك انا ورفاقي اولى الامر واصحاب السياده

في وطننا العزيز فوجدنا ان خير قانون هو معاقبة اى قوزاقي

اشتبه فيه محرضا لاجتماع ان يسجن خمسة شهور وان اراد

ان يفدى نفسه فيدفع خمسمائة روبل لحكومة جلالة الملك

فهل انتم موافقون

نعم موافقون نعم موافقون ( حزب الشمال )

كلا ان ذلك قاتل مجحف ( بعض حزب اليمين )

وهنا قام احد اعضاء حزب اليمين جون سوبيسكى فقال  
ايها الرئيس . ايها الاخوان . ان ذلك القانون الذى اخرج به  
جناب الرئيس وزملائه ووافقتم انتم عليه لانه موافق لمصالحكم  
قاتل اغيركم . قاتل للشعب . قاتل لذلك الملك الذى ينقلب  
بالارهاق شيطانا .

فهل فكرتم كلكم في ان مرا كزكم التى انتم فيها لم تحفظ  
وان اموالكم لم تبق . وان حياتكم لم تسلم . الا لان الشعب هادي  
لا يحرك ساكنا الا وشرف بولاندا ان تفخه واحدة في تلك  
النار المدفونة لكافية ان تكشف عنها الرماد فترى رجلا  
ككروميل يمثل على مسرح البلاد البولندية رواية شارل الثانى  
( ضجيج تافف )

اسكت اسكت لا تريد ان تتكلم ( حزب الشمال )

( سوبيسكى في وسط الصخب ) دعونى اتكلم ايها الاخوان

فترؤا صفة كلامى حتى اذا مت يوم ما وذكركم اسمى ترجمتم  
على فرد يسوءه انحلال بولاندا .

فيا ايها الرئيس ويا ايها الاخوان افيقوا واعلموا ان  
تلك القوانين تثير الشعب وانكم انما تحفرون قبوركم بايديكم  
. انتم تثيرون النار بنفخ الرماد . رفقا بانفسكم ورفقا بشعب  
تقودونه . بل بشعب المايكم ووكلكم اموره

( حزب الشمال وبعض حزب اليمين ) اسكت يا نصير  
الشعب هاهاها لا تريد ان تتكلم كفى هذيانا

(الرئيس) سنأخذ اغلبية الاصوات بطريقة سرية فليكتب  
كل عضو رأيه في ورقة وليلقها في هذا الصندوق . واثار الى  
صندوق وضعه على طاولة امام المصوتين .

وهنا تم سويسكى قائلا الان تمت الغلبة للظامة وصار النصر  
في جانب العسف وضاع العدل بين اولئك الذين ليس لهم  
من النبيل الا اسمه فيا ويح امة انتم نوابها

وبعد ردهة من الزمان سككت الجلبة على صوت الرئيس  
اذ قال ايها الاخوان سيسرى القانون باغلبية الاصوات

والان فان امامنا ضريبة تريد ان نقررها لان المالية في حاجة الي المال لتحسين الحالة الادارية في المملكة .

وما انتهى الرئيس من كلامه حتي قام جون سويسكي وقال  
انك يا جناب الرئيس ويا حضرات النبلاء لو كنتم تخالطون  
الشعب لاذركم حالته المالية فلا بد انكم كنتم بدلا من ضرب  
الضرائب تخففونها عنه لانها اصبحت حملا ثقيلا على كاهله يئن  
تحتمها فرفقا بالامة باقاداتها . ورفقا بالشعب يانوابه . ورفقا  
بالمملكة يارؤسائها

الرئيس : ذلك امر جلالة الملك ومع كل فسري باغلبية  
الاصوات فيا حضرات النواب هل توافقون على ضرب  
ضريبة جديدة

( من اليمين ومن الشمال ) نعم نعم ذلك من حق جلالة  
الملك وحقنا . وبعد قليل وافقت اغلبية المجلس على ضرب  
ضريبة جديدة

وما هي تلك الضريبة ؟

انها كانت على قطع الاخشاب من الغابات . اذ قرر ان

كل طن من الخشب يؤخذ عليه ثلث ثمنه رسماً  
وهكذا كان ذلك المجلس يضيق على انقاس الشعب  
وبذيقه كؤوساً يضيق لها صدر الحليم  
ارفض الاجتماع اخيراً . فكان اول المجتمعين خروجاً  
جون سويسكي الذي دافع بكل قواه عن الشعب . وبذل كل  
مجهوده المذود عن حوضه .

فما ظهر امام الجمع المحتشد امام باب المجلس حتى هتفوا  
هتافاً بالغ عنان السماء كان يتخلله قولهم :

« ايحي النائب الحر » « ايحي سويسكي » « ليسقط  
الظلم » « ليسقط الاستبداد » وهكذا كان الشعب يحيي قائده  
والمدافع عنه ويظهر له ما يمكن ان يعبر به عن سروره واحتفائه به .  
وبالجملة فان جون سويسكي لم يمكنه ان ينسرق من  
هؤلاء الذين يودون الموت فداءه الا بكل عناء . فذهب توا  
الى قصره واستراح . وبعد ان تناول غذاءه ركب عربته وسار  
متنزهاً فيما توسطت عربته طريق ميخائيل حتى تقدم الى العربية  
رجل لابس لباس الخدم البولنديين وبيده رسالة . وما

لبث سوبيسكى ان رآه حتى اوقف العربى وقان

— خيرا يا سرجيوس

— ان شاء الله ياسيدى ولكن سيدتى ارسلتنى لا أقابلك

وأعطيك هذه الرسالة

— فأخذ سوبيسكى الرسالة وأمر سائقه بالمسير وفضها

فوجد بها سطرًا واحدًا هو « قابلنى الليلة بغار السعادة »

والامضاء صوفيا

فقال ياترى أى امر جد واي حادث حدث وانا تاركها

بالامس قريرة العين ولكن على كل حال سأراها اليوم

وقف السائق اخيرا امام قصر سيده فنزل سوبيسكى

من المركبة وصعد القصر .

فلتركه الآن ولانسر بالقارىء حيث يلتقى العاشقين

## الفصل الثالث

### البولندية الحسنة

صوفيا جاركوف عادة بولندية تسكن وارسو عاصمة

بولاندا وحاضرتها. وهي معروفة فيها بحبها للخير والاحسان. ومد يد المعونة لفقراء وارسو وعائلاتها وطالما رأوها سائرة متبرمة بقناع كفيف حاملة بيدها مؤونة أو مالا تريد ان تحسن به مخترة ازمة ضيقة واما كن قذرة لا يسكنها الا الشعب الفقير الذى صار فى النزاع الاخير من حياته لما اصابه من تضيق فى الحرية وسلب فى الاموال . وضياح فى القوى .

تسير تلك الغادة الحسنة حتى تقف ببيت خيم عليه الفقر فصارت أيام ساكنيه أشد سوادا من حظ المنكود فتقلب تعاستهم سرورا وأحزنهم حبورا ولا غرو فقد كانت كملائكة الرحمة لا تنزل فى مكان الا وتترك به أثرا من انوار النعمة .  
تواسى المرضى فتسقيهم . وتساعد الفقراء فتنجيهم وتطعم الاطفال فيفترون عن ثمر باسم شاكرين لها تلك اليد .

ومن ثم تخرج مخنوفة بدعوات خارجة من قلوب  
مخالصة تود لها الخير من صميمها . تخرج ووراثها السنة منتظمة  
بشكرها والثناء عليها .

تسير في الطرقات فيشيرون اليها قائين « هذه ملاك وارسو  
صوفيا جاركوف ذاهبة الى منزلها بعد ان ساعدت عائلات  
فقيرات خيم البؤس على منازلهن فما خرجت منها حتى صيرتها  
جنة »

« ان الطيور على اشكالها تقع » ذلك مثل عربي طالما ساعد  
الدهر على اتيانه ولا غرو فان صوفيا جاركوف ملاك وارسو  
كما يقبونها كانت حبيبة ذلك النائب الحر والبولاندي الطاهر  
المدافع عن الحق . الذائد عن المروعة « جون سريبيسكي »

راها ذات يوم جالسة في حديقتها تخطط ثيابا لاشك في  
انها كانت لعائلة فقيرة . وكان قلب ذلك انبطل الذي صار  
فيما بعد اشجع قائد في زمانه خلو من الهوي فما رآها وصادفت  
عيناه عيناها حتى امتزجت روحاهما ومالا الى بعض كل الميل  
ولم يمض يوم او يومان حتى تقابلا وتلك سنة الغرام الطاهر

## والحب الشريف

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فوعد فلقاء ؟

تلاقيا بعد ذلك مرارا وانما كانا يتلاقيا في غار بعيد عن  
المدينة يطلق عليه اسم « غار السعادة »

كان ذلك لان ابي صوفيا الكونت سمولنسكى  
رئيس « الديت » يكره ان تتلاقى ابنته مع رجل كسوبسكى  
يساعد الشعب على النبلاء مع أنك لو سألت ذلك الرجل  
بشرفه ونبله عن رأيه فى سمولنسكى لصاغ لك المدح عقودا  
واعجب به أيا اعجاب ولكنه لا يمكنه ان يصرح بذلك خيفة  
ان ينتزعوه من مركزه عنوة واقتدارا ويبدلوه بغيره .

وان مركز رئيس الديت لمركز تتوق اليه نبلاء بولاندا  
بشكل شاك تبدر من فم الكونت سمولنسكى تودى به  
موتنزه من حلق مجده .

وكان لصوفيا خادم امين تربي فى بيت ابها من صغره  
فكان هو الوحيد المطلع على غرامها الطاهر . بل كان الرسول  
بين الروحين المقل للرسائل بينهما بامانة قلما يشار كه فيها آخر

من بني آدم

تقابلا ذات يوم في غار السعادة ولم يلبث سوبيسكي قليلا حتى استأذن حبيبته بالانصراف وذلك لانه قد ورد له خطاب من الديت يفيد بان موعد الانعقاد باكروا انه لابد من حضوره لحصول امور ذات اهمية وتقرير قرارات كبيرة .

وانما كان ذلك اليوم هو الخامس من شهر ( آب ) الذي دافع فيه جون سوبيسكي عن الشعب دفاع المستميت . بال هو اليوم الذي قابله فيه خادمها سرجيوس بخطابها الذي تدعوه فيه وذلك لان ميخائيل ملك بولاندا استدعي الكونت

سمولنسكي اليها بعد اجتماع المجلس وتقريره تلك القوانين فلما عاد استفسرته ابنته عما دار بينه وبين الملك اجابها قائلا اطمئني يا ابنتي فانه لم يدعني الا ليخبرني ان الاتراك برئاسة احمد باشا كوبريلي صدرهم الاعظم قد احتلوا كامتياك احتلالا نهائيا وانهم يتقدمون بانتظام نحو العاصمة . وقد خيرني في انتخاب قائدا لهم فاشرت عليه بانتخاب جون سوبيسكي .

— ماذا يا أبي اهل ضاع حب الوطن من افدتكم فانك

روى لى خبر احتلال الاتراك لبادوليا وكامنيك بكل سهولة وبساطة . ثم ثقاجتنى بتعيين سويديسكي . أهل تريدون بهذا التعيين ان تبعدوا عن المجلس خيرة نوابه وارقى منتخبيه .  
— الا فاسكتي فانه تقرر نهائيا ولا مرد لامر جلالة

الملك ونبلائه

خرجت صوفيا من ثرفة ابها وقد غص ربةها وصارتعين ذلك الحبيب قائدا لجيوش بولاندا قذي في عينيها وشجي في حلقةها . ولا ريب فأنهما ما يكادا يرثفنا كؤوس الحب الطاهر والغرام العذرى حتى وافى نبا الفراق وحتم عليهما ان لا يتلاقيا بعد . وربما وافى حبيبها اجله المحتوم في تلك الحرب التى ولا ريب سيقاثل فيها مقاتلة الشجاع المستميت .

فكتبت تلك الرسالة ونادت سرجيوس وقالت له .

سرجيوس عليك بمقابلة جون واعطائه هذه الرسالة يدا نيد ولا بد من ايجاده وان كان في المجلس فانتظره . واياك ان تأتبنى الا بنحبر يسرنى وما هو الا ايجاده واعطائه الرسالة

سترين كل مايسرك ياسيدتى

غاب سرجيوس ورجع فكان أول من قابله صوفيا اذ كانت  
جالسة في حديقته فسأله اقاياته

نعم ياسيدتي وقد اخذ الرسالة واستغفر من صحتك  
اذا فاستعد ياسرجيوس الليلة في منتصف الليل لاننا  
سنذهب الى غار السعادة فقد بلغ الامر من الاهمية اكبرها .  
— سمعا وطاعة ياسيدتي

التصف الليل ونامت وارسو وساد عليها السكون حتى  
الطبيعة فانها شاركتها في ذلك السكون فلم تكن تسمع غير  
خفيف الاشجار وخرير نهر الفستيولا فلم يكن هناك من  
انتهت عيونهم ولم يشاركوا ذلك المجموع الاخر في نومه الا  
ثلاثة هم جون سويسكي وحبيبته صوفيا وسرجيوس ملاكهما  
الحارس .

فلو سار القارىء في ذلك الوقت قاصدا ذلك الغار ملتحق  
العاشقين لوجد سرجيوس واقفا على باب حارسا وهما في الداخل  
يتشاكيان الغرام ويتبادلان كؤوس المحبة .

فلتخذ من الظلام سترا لتكون على مقربة منهما فنسمع  
بلايات الحب يفوه بها ذلك انهم اللطيف الطاهر .

ابتداً سويسكي الحديث فقال

اي صوفيا خيرا ان شاء الله فاني تركتك أمس قريبة  
العين جذلة الفؤاد فما الذي دعاك الى ارسال هذا الخطاب .

ما هذا الكلام ايها الحبيب الا تريد أن تكون على مقربة  
من بعض . الا فاعلم انا عن قريب سنفترق فان الاركهاجوا  
بولاندا وقد عينوك قائدا لجيوشنا

فتجههم وجه جون وصاح . — ماذا ايها الحبيبة ان ذلك  
لخبر لم اسمع به حتي الساعة الا منك . واذا كان خبر كهذا  
له من الاهمية ماله ولا اسمع به حتي الساعة يذا الارك  
يتقدمون ممتلكين بلادنا ونحن نسكت حتي الان . الا انه  
خير لبولاندا ان تتحل من ان تكون في مركز كهذا . اما انا فاني  
انقدم لا لا اكون قائدا بل لا تطوع كجندى بسيط أحارب  
اعداء وطني وما أعداءه في الحقيقة ألا مليكة وبلاؤه . والان  
كيف يتسنى لهم جمع الجيش وصد هجمات أولئك الارك

الذين طالما سمعنا عن خبر انتصاراتهم العديدة .

فيارب كن مساعدي وقو ساعدي حتي ارد غارات قوم  
سوف يتلمعون وطني العزيز فيذهب ضحية أولئك السفلة  
القابضين على ازمة الامر فيه . اما انت ايها الحبيبة قفراق  
ان شاء الله يقببه تلاق بانتصار وخير . ودعيني ايها الحبيبة  
التي ان مت فليس امامي الا شبحان يهيجان قلبي وضميري  
اولهما بولاندا والثانية انت يا صوفيا .

فصلي وادعي لي في صلواتك بالنصر عساني انتصر فاكون  
ممن جاهدوا في سبيل اوطانهم .

وانت ايها الحبيبة الاترين ذلك الضعيف ميخائيل وكيف  
لم يصل الي ناخب الحرب ونحن اعضاء مجلس الشورى لبولاندا  
بل لولاك لم يصل الى الاربعاء حينما يكون الاتراك على ابواب  
وارسو والان ايها الحبيبة ودعيني . قلمي . دعيني اتملي من  
حسنك الفتان فأخذ لي منه زادا اتزود به في غمار تلك الحرب  
الشعواء .

— او اه ايها الحبيب اتفارقني ولم يكبر للان غرامنا ويشب .

ما هذا يارباه اهل قدر على التعاسة والشقاء . ايها الحبيب استعطفك .  
بغرامنا الطاهر ان تبقى بجانبى ولا تقدم على حرب سوف  
تنتهى بانخذالنا .

رفقا يا صوفيا فتحن لنا في موقف غرام . بل في موقف  
وطن واقدام . فخصك لا يرحم مخياتى . ولكن وطنى . وطنى  
الذى ان مات متنا وان عاش عشنا لا بد من انقاذه والا ذقنا  
من بدالاتراك كأس الموت وصرنا سبة الدهر . وعار التاريخ  
والان وداعا ايها الحبيبة وسأترك بجانبك سرجيوس فهو  
ملاكك الحارس .

وهنا كانت الساعة المؤلمة ساعة الوداع فقص ريقهما  
وبللت دموعهما اخديهما وودا لو ان الساعة تقوم فيموتان معا .  
ويحشران معا .

ولكن سويسكي قاوم نفسه وهرب مودعا اياها .  
فلتركما الان ولندع مواقف الغرام وراءنا ولنستقبل  
ساحة الحرب ومواقف الطعان لترى حب الوطن وكيف  
يكون مبلغه

## الفصل الرابع

كامنيك

نسير الان زحفا الي بدونيا قاصدين كامنيك حصنها  
والحصين بل تلك القلعة التي حضنها ايدي الطبيعة . ودمجتها  
يد المنايا الالهية فكانت كالاسد الرابض المنعم الجانب .  
فلامرتقامات واترلو التي تحصن بها ولتجتون قهر ناليون  
واطفاء بيده نجم سموده وقهره بيد القادر المتمكن . وانزل  
ذلك الجبار الذي اطلق عليه لقب الرجل الذي لا يغلب من  
سما مجده الى اسفل سافلين

بل ولا مضيق ملونا الذي محصن به اليونان في حربهم  
الاخيره وقهرهم فيه ادم باشا بهمته المعروفة وحياته الهائلة  
ولا غرو فقد كان كامنيك حصنا حصينا قائما في وسط  
سهل كبير لا يمكن لاحد ان يحمي نفسه باى شيء تحت نيران  
مدافعه وبنادقه . فلنذي يمرض للهجوم عليه كيتعرض لاسد  
بلا سلاح اما ارتفاعه فقد كان هائلا . ولكن حكومة بولاندا

اهمته اهملا فظيما ونبذته نبذ النواة فلم تعد دفاعه كما كان  
المطلوب.

فصار من السهل افتتاحه واحتلاله على قوم كالأتراك  
يقول عنهم نابليون « لو كان لى جيش من الأتراك لفتحت  
العالم بأسره »

فقد كان وسار احمد كوبر بلى باشا بجيش يزيد عن ربع  
مليون جندي مدرب يحمل عدة كاملة وكلهم ذو عزيمة حادة  
قوية طالما حبيتهم الى الحريين من كل مملكة

فقد كان الجندي العثماني يقاتل بشجاعة واطمئنان قتال  
الحافظ للمثل القائل « من مات فى سبيل وطنه مات شهيدا »  
فهو شجاع يعلم ان الموت موت واحد . ولكن عدوه جبان  
يموت مائة مرة قبل ان يدخل فى غمار الحرب . وزيادة على  
ذلك فهو صبور لدرجة لا تطاق يكتفى بالقليل من الطعام .  
تقدم كوبر بلى احمد باشا بهذا الجم الغفير وكلهم قلب  
واحد يودون النصر وكلهم مشتاقون لذلك .

فى التاسع من شهر نوفمبر سنة ١٩٧٢ ظهرت طلائع

جيش احمد باشا فرأى الحامية التي في الحصن ولم تكن تزيد  
عن خمسة آلاف جندي . ليس عندهم من المؤونة الا ما يكفيهم  
أيام قلائل

رأى أولئك الجنود ذلك الجيش الذي سوف يهاجمهم  
عن قريب فعولوا على الدفاع الى آخر نقطة من حياتهم والموت  
شر فاء يذكرهم التاريخ بأنهم لم يسلموا وفيهم نقطة دم . بل  
يذكرهم بأنهم ماتوا دفاعا عن أوطانهم  
فمسكرت جنود احمد في السهل على مقربة من الحصن  
وعولوا على المهاجمة بعد قليل

وقد باشروا الهجوم على الحصن في صباح العاشر من  
شهر نوفمبر فكانت قذائف الاعداء تنهال عليهم كالوابل  
الहतون فيثب عزرائيل قابضا روح هذا مسنمها ذاك والحي  
منهم يجعل الميت ترسا يحمي عنه رصاص الحامية وقذائفها فلم  
ينتصف النهار حتى كان الاتراك على قاب قوسين او ادنى  
من الحصن

ومن ثم صرخ أولئك الشجعان صياحهم المعروف وقت

النصر « الله أكبر » « الله أكبر » فاهتز الوادي والحصن  
معا لهذا الصياح المخيف من فم ربع مليون جندي كل له  
صوت يدك معقلا

فكان صياحهم كالأذائف أصابت قلوب البولانديين  
فهللوا وصاروا كالجزوان لحقهم السنانير فسكنت أصوات  
الحامية . ولا غرو فاهم دافعوا عن الحصن الى ان خلاصت  
المؤونة

كان لكل جندي عثماني فأس في حزامه فأخرجها  
وتحطمت الابواب ودخل الاتراك منتصرين ثمانين بخمرة الفوز  
عادتهم في كل موقعه

أما البولانديين فانهم عمدوا الى السيوف فأخرجوها  
من اغمارها واستعدوا للموت

وقلدهم الاتراك فكان مذبحة انتهت بقتل جميع البولانديين  
حامية الحصن عن آخرهم حتى قائدهم فانه أسلم الروح من يد  
ضابط انكشاري ضربه ضربة فصل بها رأسه عن جسده  
وهكذا بر البولانديين بوعدهم وقاوموا الى النهاية

فذهبوا ضحية حبهم لوطنهم يحفظ لهم التاريخ ذكرا حسنا  
ماكر الجددان

دخل احمد كوبريلي الحصن وامر كشافين الجيش بالذهاب  
ليروا جيوش البولنديين وهل تقدمت ام لا

هبت ريح نقلت ابناء الحرب الى جميع انحاء بولاندا فعلم  
القاصي والداني الصغير والكبير بما آلت اليه حال مملكتهم وكيف  
هزم الاتراك جيوشها بل كيف يتهاون ملك بولاندا ونبلائها  
في الدفاع عن وطنهم ضد عدو مخيف كالأتراك .

فلم تصل أخبار الانتصار الى قوزاق الأكرين حتى هبوا  
ثأرين سائلين الاصلاح . طالبين العدل والانصاف . ولا غرو  
فقد جاءت الفرضة وحان وقتها . والزمن فرض . ان تركت  
عادت غصص .

ولغاية ذلك الوقت لم يهتم نبلاء بولاندا بل ولا مملكتها  
الذي كان يجب عليه ان يخاف على عرشه من الاضمحلال  
اي اهتمام .

بل ولم يعقدوا مجلسا ليجثوا عن احسن الطرق لرد ذلك

العدو الذى يتقدم باطمئنان .

ولكنهم بهذين المحموم امروا ان يولى على الجيش جون

سوبيسكى وان يجمع الجيش بسرعة زائدة .

وعلى هذا الدرب ساراولى الامر في بولاندا فولوا

جون سوبيسكى قيادة الجيش لانه رجل يحبه الشعب ويود لو

ينفديه بارواحه .

فلم يكذ يصل نبأ هذا التعيين الى المدن والقرى المجاورة

حتى توافدت الجنود المنظمة . والاهالى المتطوعة . زرافات

ووحدا نالكونوا تحت أمرة قائد محبوبه ومجلونه .

فلم تمضى أربعة أيام حتى استعد الجيش للمسير ليحارب

عدوهائل وأسد رابض . سار الجيش وصراخه يعم الاذان

قائلا .

لتحي بولاندا . ليحي الوطن . ليسقط الاتراك . ايمش

جون سوبيسكى

وهكذا نسي الشعب فى ذلك الوقت اضغاثه السابقة

لاولئك الذين جعلوا همهم قتله . والتضييق على حريته .

تناسوا الاضغان وانما لان الوطن في ضيق يجب عليهم  
ان يساعدوه بكل قواهم وان يبذلوا جهدهم لينقذوه من مركزه  
اخرج . وبعد ذلك يولون وجوههم شطر أولى الامر  
فيحاسبونهم على غاظاتهم الماضية . على استبدادهم وتعسفهم .  
على قواينهم القتاله .

وعلى هذا النمط سار ذلك الجيش تحت امر قائد مدرب  
خير وكلهم قلب واحد . يطيعون أمره أطاعة الرضيع لوالدته .  
فانسر معه خطوة خطوة حتى نالتقى بالأتراك في جوقزين  
فترى كيف يكون الغلط اصل التقهر . بل كيف ينتصر الجيش  
مادام متحدا قويا يتوده رجل محنك وطني كسويديسكى

## الفصل الخامس

### جوقزين ولبرج

جوقزين ولبرج هما اسماء تلك الواقعتان اللتان حارب  
فيهما سويديسكى محاربة الضعيف اليأس ولكن بعزيمة لا تقل

وقوة لا تمل فتد استعمال قواه واجهد فكرته في ايجاد طريقة  
لهزيمة عدوه .

وقد كلل عمله بالنجاح وظفر أخيرا على الاتراك وهزمهم  
شر هزيمة في الواقعة الاولى « جوقزين » ومن ثم سار متبعا  
أيام إلى ان لحقهم في « لبرج » وبقوة المنتصر الحق بهم خسارة  
عظيمة وهزمهم .

تحققت نبوءة يوم قال لصوفيا « تلاق يعقبه انتصار وفرح »  
فانقلب بأسه شجاعة . وود لو قابل الاتراك ليقهرهم نالته . ولكن  
هي الدنيا « يوم لك ويوم عليك »

والان فلنصف قدر الامكان جوقزين ومن ثم لمبرج ليعلم  
كل كيف يريق الناس دماءهم دفاعا عن وطنهم بل كيف يستमितون  
في الدفاع عن حقوقه .

قلنا ان الاتراك دخلوا كامنيك بانتصار كبير . وارسل  
احمد كوبريلي باشا كشافة الجيش ليروا كيف يتقدم الجيش  
البولاندي الذي خرج من وارسوا قاصدا كامنيك ليخلصه  
من اعداء الوطن .

فلم يزل متقدماً سائراً ببطء حتى وصل جوقزين وهي  
قرية في منتصف المسافة بين كامنيك ووارسو فعسكروا خارجها  
بأمر من سوبيسكي .

منتظرين جديد من قائدهم الباسل .  
وقد عسكر سوبيسكي خارج هذه القرية وإنما كان  
غرضه الوحيد في هذا العمل هو ان يسحب الأتراك الى  
ناحية ليقاتلهم في واقعة منظمة يكونوا فيها أمامه .

وذلك لأنه فكر وعمد في الطريق الى كامنيك فوجد ان  
الحصن منيع والأتراك قد زودوه بما معهم من مدافع وذخيرة  
فصار أمتع . وعلى هذا فانه يلقي بنفسه في آتون من نار اذا  
تقدم يريد الدخول الى الحصن واخذه .

بل هو يلقي بنفسه في فم الليث بدون ان يتخذ له درعا أو  
شيئاً يدفع عنه الضرر الذي سوف يلحق به .

وقد ساعده الحظ على اتمام مراده . فان احمد سار قاصداً  
أياه وذلك لأن الكشافة بعد ان تنسموا الاخبار وعلموا علم  
اليقين ان البولنديين معسكرين خارج قرية جوقزين ساروا

قاصدين كامنياك . فاخبروا احمد بحقيقة الامر .  
واخيرا بامل الانتصار كما انتصر قبلا عول على الزحف  
ليلا في عدوه

فامر اركان حربه باتخاذ معدات السير ولزوم السكون  
والؤدة .

وفي اليوم الثاني نادى مناد بالرحيل فتحرك ذلك الجيش  
الجمالكثير تاركا القلعة لحامية غير قليلة وترك معها مؤونة كافية  
وسار الكل قاصدين جوتزين وكل يمني نفسه بانتصار كبير  
على سويسكي وجنوده .

وهكذا يتنى المنتصر دائما نفسه بالانتصار حتى اذا غلب  
وكان من ذوي النفوس الضعيفة اليائسة رجع القهقري . أما  
اذا كان من ذوي النفوس الكبيرة والهمم العالية . علل نفسه  
بالانتصار منشدا قول الشاعر

على المرء ان يسعى لما فيه نفسه وليس عليه ان تتم المقاصد  
ومن هذا الصنف الاخير كان كوبريلي احمد باشا فقد  
كان رجلا قوي الهمة على الامال . لا تعجزه أى عقبة . ولا

يقف في طريقه أى مانع . يسير الى مرمى فكره ولبه . ولم يغب  
عن العالم ما فعله هذا الرجل العظيم بل لا يحجل المؤرخون تلك  
المواقع التي كتبها بحد حساءه . وان هزم اولاً فإنه انتصر اخيراً  
والعبرة بالآخر لا بالاول .

سار احمد يقوده جيشه العرمرم وكاه آمال بالانتصار .  
فوصل الى ضواحي جوقزين في سهل هناك وعسكر .

وصل خبر الاتراك الى البولنديين فاحدت هرجا بين  
الجنود الذين لم يلبثوا ان سمعوا بنفيهم يأمرهم بالاجتماع فاصطفوا  
وخرج سويديسكي من خيمته ممتطياً مركبه الادهم الجميل الى  
ان توسط الجيش فوقف . ووجد في هذه الساعة ان خير مشجع  
هو ان يلقى على جنوده خطابة صغيرة تبث فيهم روح الاقدام  
ولو أنهم كانوا في غنى عن أى مشجع .

ساد السكون فلم تكن تسمع وقتئذ الا ضربات القلوب التي  
لم تلبث ان هدأت حينما اُدار سويديسكي رأسه ونظر نظرة  
المرتاح الى جنوده وابتهم وقال . مقلداً هنيئال في خطابه الى جنوده  
ابها الجنود الشجعان .

« ادير رأسى وأوجه نظرى فلا أرى أي ثغورا باسمه .  
ووجوها تضره . دلالة على انكم جنود بمعنى الكلمة تريدون  
النصر وسيكون ان شاء الله حليفكم .

انكم اليوم ستقاتلون عدوا مخيفا قاهرا طالما سمعتم عن  
انتصاراته العديدة . ولكن ذلك لا يمنعكم عن الانتصار انتصارا  
باهرا يذكره التاريخ وكتبه . ويفتخر به ابناؤنا من بعد .

كونوا متحدين قلبا وقالبا تغلبون اعداءكم وتساعدون وطنكم  
الذى هو في حاجة كبيرة الى الانتصار اذ انه يتوقف عليه سعادتهم  
أو ذلهم .

قاتلوا جنبا الى جنب ولا تخبئوا ايم لكم النصر واعلموا  
ان العالم كله سينظر الى هذه الموقعة اذ تهزمون قوم يقول عنهم  
بقية اخوانكم الاوريون انهم لا يغلبون .

والآن هيا الى الحرب . هيا الى الاتراك . »

فاجابه اصوات الجند التي تحركت وقبض الامام قائلة .

« الى الاتراك » . « الى الانتصار »

فكان يجيبهم كصدى على صياحهم قول الاتراك « الله

أكبر « الله أكبر » الذين تقدموا باطمئنان نحو عددهم .  
تلاقى الجيشان في سهل يطلق عليه الآن سهل تيرونوفتش  
فاطلقت القذائف ولمت السيوف واحتلت السهل جنود  
عزرائيل واكفهرت السماء . واغبر وجه الجو .

وفي اخرج اوقات المعركة بينما كانت ميمنة العثمانيين زاحفة  
بانتصار أمر احمد كوبريلي باشا اصدار كان حربة بالذهاب الى  
بعض فرق الميمنة يأمرها بالانضمام الى الميسرة لانها كانت  
على وشك الانهزام لضعفها .

فبدلا من ان يطيع الامر اختلط عليه الامر فذهب الى  
الميسرة فامر بعض فرقها بالذهاب الى الميمنة .

وبهذه الحالة امكن البولنديين من التغلب على ميسرة  
الاتراك ومن ثم تقدموا الى القاب فمزموه ايضا .

وفي هذا الوقت تم النصر للبولنديين فتعقبوا الاتراك  
الذين التجئوا الى قرية لمبرج فدخلوها وعسكر الباقى هناك .  
وتوافدت الجنود العثمانية الى لمبرج يتبعها قائدها احمد كوبريلي  
باشا الذي عول على القتال الى النهاية

أما سوبيسكي وجنوده فانتظروا الى ان هجم الليل بجيوشه  
وساروا قاصدين لمبرج بآمال المنتصر ليجهزوا على انعمائين الباقين  
فوصل الى المعسكر منتصف الليل فدوت أبواب الحراس  
وقام الاتراك الى سلاحهم ولكن التعب الذى لاقوه .  
والنصب الذى قاسوه اثر عليهم فلم يلبثوا ان انهزموا بانتظام  
تحت استار الظلام وكلهم يردد قائلا « الى سهل كلاستيكي »  
وهو امر تلقوه من قائدهم الأكبر . فساروا جميعا الى  
ذلك السهل الذى يشرف عليه « كاميناك »

فلم ينبليج الصباح حتى كنت ترى معسكر الاتراك وخيمه  
في ذلك السهل مبعثرة هنا وهناك والجميع تحت سلطان النوم فلم  
يؤذن مؤذن بالصلاة حتى كنت تراهم بملابسهم الحمراء كزهور  
ارجوانية نابتة في سهل من الحنطة

واحمد باشا كوبريلي في خيمته يفكر في طريقة يهزم  
بها جون سوبيسكي فأرسل العيون والكشافين من القوزاق  
فلم يلبثوا ان اتوه بالخبر اليقين وهو ان سوبيسكي معسكره  
في زراونوا فعول على مهاجمته في مفره

فجمع أركان حربيه وقسم جيشه قسمين امر الاول  
بالمسير تحت امره احد كبار قواده سيف الدين باشا ولا يعلم  
احد وجهته الا قائده

اما هو فانه بعد يومين شد رحاله الى زراونوا وسار  
معهما اياها

## الفصل السادس

زراونو ومما هدمها

يقول المؤرخون ان « احمد باشا كوبريلي » حاصر  
« جون سوبيسكي » في زراونو محاصرة عنيفة ولكن كان اسم  
سوبيسكي كافيا لان يدع احمد باشا وجيشه يسلم بعمل معاهدة  
مع البولانيين هم فقراتهما ان يأخذ الاتراك بادوليا والبولانيين  
الاكرين

ولكن جميع من لهم ذرة من العقل والفكر يحكمون بان  
هذه الحقيقة وهم كاذب لانصيب له من الصحة.

اذ كيف يعقل ان يحصر « احمد باشا كوبريلي »

« سوبيسكى » بفتة اكبر واكثر من فئته ثم يسلم على زعم ان  
اسم « سوبيسكى » كان كافيا لان يدع الاتراك يسلموا  
رباه انهم كلما جاؤوا الى حقيقة في جانب الاسلام قلبوها  
كذبا فهم يحاربوننا في بلادنا . فى اموالنا . فى نسلنا . فى علومنا .  
بل وفى تاريخنا

ان جيش احمد باشا لو كان سنانيرا السكانت كافية لان  
تسحق قوة سوبيسكى وفئته التى لاحول لها ولا قوة بل  
محصورة تحت رحمة الله ويد احمد باشا فالحقيقة المرة التى  
تصيب قلوب أولئك المؤرخين هو ان احمد باشا كوبريلى اما  
انه سلم بعمل معاهدة حسما للنزاع او انه وجد انه خير له ان  
يباشر هذه المعاهدة من ان يطيل أمد الحرب

فقلبوا الآية وقالوا ان اسم سوبيسكى كان له رعب كاف  
لان يجعل الاتراك يبرمون معاهدة

نرجع الآن الى سياق الحديث اذ تركنا احمد باشا  
كوبريلى سائرا بنصف جيشه بعد ان امر النصف الثانى بالمسير  
قبل يومين تحت قيادة سيف الدين باشا

وزراونو قرية محاطة بتلال عالية احتلتها جماعات  
البولاندين وجملوها كدرع يحمي المدينة غوائل عدوهم المين  
ففي السادس من شهر ديسمبر سنة ١٦٧٥ بانث طلائع  
الأتراك من الجهة الشرقية للمدينة فاصلتها الحامية نارا من  
مدافعها جعلتها تقهر للوراء ومن ثم عسكرت بعيدا عن مري  
تقذائف العدو

نسیر الآن حيث سيف الدين باشا قائد النصف الآخر  
بأمر رتبة كوبريلي باشا . فتدذهب هذا البطل وقلته زراونو  
فسار قاصدا اياها ولكن من طريق يقتضى زمنا كثيرا .  
وحدد له كوبريلي باشا ان يهجم على المدينة من الجنوب نصف  
الليل تماما في ليلة ٧ ديسمبر سنة ١٦٧٥ . حيث يهجم هو من  
جهة الشمال وعلى هذا يمكنهما القضاء على سويسكى واماله

هجم الليل والسكون ضارب أطنابه مخيم علي زراونوا  
وضواحيها . والقمر يشرق اناويحتجب آخر . والظلام سادل  
سترا على الجيش فلم تكن تسمع الا خطوات الحراس المنتظمة  
ولكن في الساعة الحادية عشر اى قبل منتصف الليل بساعة

كان المار بقرب معسكر الاتراك يرى حركة غير عادية والكل  
في بقظة كلهم على قرب ان يلتحموا مع عدوهم في موقعه .  
وقيل نصف الليل بقليل تحرك الكل بسكون حتى اذا  
كانوا على قاب قوسين او ادنى من المعاتل البولا ندية احتجب  
القمر وراء السحاب فزحفوا على بطونهم . ومن ثم اصدر  
كوبريلى باشا امره فهلت تلك الجموع وكبرت وهجمت  
هجمة الاساد على معتقليها .

التحم الجيشان . ولمت السيوف . وكنت تسمع صفير  
الرصاص يمر كالوابل المhton . فتقدم الشجاع . وفر الجبان  
كانت هجمة الاتراك شديدة جدا بدرجة ان البولا ندين  
تقهقروا قليلا بالنظام . ومن ثم اعادوا الهجوم فكانوا على قاب  
قوسين او ادنى من الفوز لولم يحدث ما حدث

واليك ايها القارئ . ما حصل فان سيف الدين باشا هجم  
بمحيشه على البولا ندين من الجنوب بينما كان الاتراك مبتدئين  
بالهجوم من الشمال .

فجازوا فوزا مينا وقهر البولا ندين ودخل الاتراك

فأثرين واتجهت منهم قوة كبيرة الى الشمال لينجدوا كوبرهلى  
باشا وجنوده . جأؤوا في الوقت الملائم

جأؤوا وقت ان بدأ البولنديين بتجديد الهجوم فحاصروا

بين قوتين قويتين فسلم من سلم وقتل من حارب  
فالتقف هناك بعد الساعة الرابعة حيث ابتداء النهار ان  
ينباج والصبح ان يتنفس . لتري الاوصال الممزقة . والجسوم  
المفرقة .

لنقف هناك حيث ضاق رحب الفضاء . بأكام الاشلاء  
لنقف ولا تنقل قدما . فان على الارض اجساما لم ينضب ماؤها  
وقلوبا لم تجف دماؤها . ووجوها لم يزايلها حياؤها .  
لنقف وتذكر قول أبي العلاء

سر ان استطعت في الهواء رويدا

لا اختيالا على رفات العباد

اللهم ان القلم ليقف بين الانامل مشدود الوثاق . والقلب  
لينعصر من الجزع والاشفاق . ليسطر نكبات الحرب ومصائبها  
ودواهيها وكربها . بل وما تجلبه على الأهلين من موت وخراب

ديار . وتبديد عائلات وضياع آثار . بل وما تجنيه العالم من  
رزاياها السافلة . فالقهور يقاسى الام الانكسار . والمتصر  
يتلذذ بنعمة الانتصار . ولكن كلاهما أضاع نفوسا زكية . وبدد  
اموالا . وأسال دماء بريئة .

فالحرب داهية شعواء . فهي كفراب البين ما وجدت  
في بلد الا دمرته وما الانتصار الا غطاء خفيف اذا ما انكشفت  
ظهرت آثار الجرح التي لم تندمل . وبقايا المصاب التي لم  
تذهب آثارها .

دخل احمد كوبرلي باشا زراونو ظافرا منتصرا بعد  
ان سلمت له الحامية باجمعها .

ولكن ذلك المنتصر الظافر امر عند تسليم المدينة كف  
القتال وعامل جيوش بولاندا الباقية وقائدها جون سويسكي  
معاملة الخدن للخدن فلم يتعسف ويستبد بهم بل فاق في تلك  
الحالة في الرحمة اوائك المتمدنين ابناء اوروبا في القرن العشرين  
الذين يدعون انهم ملائكة الانسانية .

وانما نضرب مثلا بالبيد الماضي . بل بالقرب الحاضر

بايطاليا التي فنكت بالطرا بلسين شرفتك . ومثلت باسرى الحرب  
اشنع تمثيل وفنكت بالايمى والاطفال والارامل . فكانت  
طرا بلس مدينة النجيم حقا فالدماء تدفع . ورؤوس الابرياء  
نقطع وقلب المدينة عليهم يتوجع .

اجترمت ايطاليا ذلك الجرم فى رابعة النهار على رؤوس  
الاشهاد واوروبا واقفة ناظرة بعين وضع عليها حجاب ولسان  
اخرس لا ينطق . خرقت المعاهدات والمخالفات ولم تحرك اوروبا  
ساكنا كان لم يحدث هناك حادث

نرجع الى ذراونولترى الرحمة وكيف تكون . والرافة  
وكيف بصير مبالغها . وذلك فى وسط القرن السابع عشر اى  
حينما كانت اوروبا لا تزال ومحكمة التفتيش راسخة الاقدام  
بها . والاضطهاد الدينى منتشر بها . والخزعبلات قائمة على ركن متين  
ذهب احمد باشا الى سويسكى فى قصره . وقد كان  
يبكى اسفا على انتصار اعقبه خذلان . ولكنه عزي نفسه  
بجوقزين ولمبرج . تقابلا فانست سويسكى رؤية احمد باشا  
كل ما كان يقاسيه من آلام . وما يعانيه من متاعب

وقد كانت نتيجة تلك المقابلة عقد معاهدة اطلق عليها اسم زراونو وكانت هي التي يقول عنها المتخرون الساسة الاستعماريون . والمؤرخون الذين يراعون في تاريخهم حب النفس والاناية انها نتجت عن خوف الاتراك من سويسكي كانت نتيجة المعاهدة وأهم فقراتها . ان تأخذ تركيا بادوليا وان تأخذ بولاندا الأكرين على شرط ان تدفع لهم كل سنة جزية مخصوصة

انتهت الحرب على خير فصار احمد كوبريلي باشا ووجهه القسطنطينية فكان هذا آخر عهدنا به . اما جون سويسكي فإنه توجه وقبله وارسو محط رحاله واماله .

سار الى حيث يدعو غرامه الطاهر . وجهه الشريف سار الى حيث يلاقى صوفيا تلك التي كان خيالها لا يبرح ذهنه طول هذه الحرب الشعواء

فسار حيث يلاقى غرامه ومجده فإنه بلا شك كان منتظرا من الامة والحكومة ان يكافئه على ما قام به لهما من خدمات جليلة لولاه لكان قضى الامر وصارت بولاندا

مستعمرة تركية .

فأنسر معه حتي نرى كيف تكافى الامم الحية قادتها .  
بل كيف تفرح الشعوب بمنقذها . وكيف ينال العاملون من  
خير رغما عن سعي اعدائهم وكيدهم . والله يجازي كل على قدر  
عمله انه خير المحسنين .

## الفصل السابع

« في وارسو »

سار سويديسكى خارجا من وارسو في أول الحرب قاصدا  
ميدانها وبلادها تنظر اليه بعينين تائهتين كفتاة عذراء هجم عليها  
عدو ليقتصبها أو كاد فبرز اليه من حيث لا يعلم قرن سناجزه  
فتناطحا وتبارزا

هامت الفتاة فاحتبست انفاسها . ووقفت دقات قلبها .  
وسرى الدم باردا في عروقها . منتظرة نتيجة الكفاح لترى  
هل ينصر الله منقذها . أم يرديه فتموت معه .

هكذا كان شأن وارسو مع الاتراك وسويسكي فانها  
كانت ساكنة هادئة والاهلين لا ينبشون بنت شفه كأنما على  
رؤسهم انطير . منتظرين وصول الاتراك بخوف وقلق .  
حتى اذا ما بلغهم خبر جوقزين وانتصار سويسكي فيها  
هبوا كأنهم كانوا في قيودوا طلقوا . فكانت اصواتهم بالغة  
عنان السماء . ولا غرو فانهم انتصروا على الاتراك خير أمة  
حربية أخرجت للناس .

ومن ثم وصلهم خبر لمبرج فزادهم سرورا على سرور  
وصار ليل بولاندا نهار . والاحتفالات آخذة مجراها . والشعب  
قد نسي أساءات نبلائه فاحتفل معهم بالانتصار .  
وكيف لا ينسى في ذلك الوقت وهو زمن الفرح . زمن  
سرور الامة

ولكن في وسط تلك الاحتفالات اعتلت صحة ميخائيل  
ملك بولاندا وأميرها . وكانت صحته كل يوم تنتقل من سيء  
الى اسوأ وكان الامل في شفائه قليل جدا .

فكان البلاط مقر النبلاء كل يوم . والاطباء من كل

جانب كل يسعى جهده ليخفف آلامه

والمقربون منه يقولون «أفي ساعة السرور والنصر تعتل

صحة المليك» ولكن الشعب كان لا يهتم مات الملك او عاش

فانه لم ينسى انه الرأس المدبرة وان النبلاء انما كانوا اليد المحركة

لأسائه فلم يعبؤوا بمرضه او موته .

بخلاف ذلك اذا كان الملك مراعيًا خير شعبه ودولته فانه

اذا اعتل ابست الامة عليه ثياب الحداد وتكدرت من طفلها

الى شيخها ولاغرو فان الرأس الصالحة ان مرضت مرض باقي

الجسم .

اصيب ميخائيل بفالج عجز نطسة الاطباء عن مداواته .

فكان هناك سؤال يدور في خلد جميع النبلاء . « وهو » من

سيخفاه على عرش بولاندا ولاوريث له . ان الديت اذا اجتمع

فلا بد انهم ينتخبون سويسكي

وهكذا أتى اليوم السادس من شهر فبراير سنة ١٦٧٦

ومات ميخائيل فاحتفلت بجنائزه حيث دفن باحتفال لا ثق .

لمليك مثله .

ولكن تلك الحفلات التي قامت كان الشعب لا يشاركه فيها . فكانت حفلات خالية من الروح الوطنية . والاسف العام وفي عصر ذلك اليوم عينه وصل وارسو جندي بولاندا يحمل رسالة الى الكونت سمولنسكي رئيس الديت من جون سويسكي . فاجتمع النبلاء في الحال ولما انتظم عقد المجلس قام الكونت رئيس المجلس خطيبا فقال .  
ايها الاخوان .

انكم بلا ريب تعلمون خبر انتصار جنودنا الظافرة على الاتراك في واقعتي جوقزين ولبرج . وانه لانتصار سيد كره التاريخ . ويتحدثون به الحربيون في كل آن .

وقد حوصر قائدنا الهمام جون سويسكي في قرية زراونو وهاجمهم الاتراك . ولكنهم اوقعوا على عمل معاهدة هي في جانبنا اكثر مما هي في جانبهم .

تلك المعاهدة تقضى ان يأخذ الاتراك بادوليا . ونأخذ

نحن الاكرين مع دفع جزية معلومة وهي نتيجة لو تعلمون باهرة كان الساعي في تحقيقها جون

سويسكى الذى كد واجتهد لينتصر ذلك الانتصار الباهر .  
والان فقد مات الملك بلا وريث فوجب على المجلس ان  
ينتخب رجلا يقوم مكانه . فلنؤجل اجتماعنا الى الغد لان  
المسألة فى غاية من الاهمية وان غدا لناظره قريب  
انتشر خبر رجوع سويسكى الى وارسو فم الفرح ارجاها  
ورقصت القلوب طربا . وكان اشدها فرحا قلب صوفيا تلك  
الحبيبة التى كانت تقضى وقتها مصلية له داعية بالنصر والفوز  
حتى اذا وصلها خبر رجوعه كاد يثبت قلبها من الفرح . وقبلت  
سرجيوس خادمها الامين بين عينيه جزاء لتلك البشرى التى  
لا يماذلها شئ .

لو عمر احد البولاندين الامناء الى ابريل سنة ١٩٠٨  
وشاهد دخول شوكت باشا ظافرا . بل ولورأى بعينه احتفالات  
الاتراك ومعالمهم لقال « حقا ان التاريخ يعيد نفسه »  
ولاريب فقد كانت وارسو بعمائها هذا تكافى من انقاذها  
من الموت وهياها لان تكون مملكة قائمة مستقلة .

وصل الجيش وعلى رأسه جون سويسكى قبيل الغروب

فكان وارسو شعله من نار بل كما قال احدهم لم يعرف لها في ذلك اليوم ليل.

فقد كان في كل منزل احتفال وفي كل طريق اعلام وسرادق . كل ذلك ليظهر البولاندين بمظهر العارفين للجميل المقدرين الرجال حق قدرهم .

وفي منتصف الليل بينا كان الاحتفال بالغ أشده . والقوم لاهين غير محتفلين الا بما هو امامهم . انسل جون سوبيسكى من بين اخوانه النبلاء الى الخارج حيث سار ميمما غار السعادة ليلقى من يحب بعد ان غاب عنها زمنا مدبدا

فكان قلبه يكاد يثب من بين جنبيه في الطريق حتي اذا وصل الى الغار وجد صوفيا واقفة فاتحة له ذراعها

فكانت مقابلة تجلى فيها الحب الطاهر باسمي معانيه وشوهد فيها مغرمين فرقتهما ايدي الدهر ومن ثم سمعت لهما بالتلاق . جلسا وكل ينظر الى وجه الآخر ليشبع منه النظر الى ان قالت صوفيا

ايها الحبيب تلك فرص سمح بها الدهر فتلاقينا بعد

ان كنت سائرا في مواطن الخطر . ورجعت بحمد الله سالما .  
ان فرح وارسوا واهلها لا يعادل شيئا من فرحي انا التي  
كنت اهتز كالسنبلة حركتها الريح فرحا بانتصاراتك على  
امة كالأتراك

وساعة وصلنا خبر حصار زراونو كاد قلبي تقف دقاته  
ودمي يجف مع عروقي وتجلت امامي شبحا للموت يريد ان  
يخطف روحي . وما احلاه فان الموت يحلو اذا عيش السرور  
مضى . وكيف تحلو الحياة وانت بعيد عني  
وكانت صوفيا تنكلم وسوبسكي سكران بخمرة الانتصار  
والحب . الى ان انتبه وقد قبلته صوفيا فقال

الان ايتها الحبيبة زالت الاشجان . ووات الاحزان .  
وابتسم ثغر الدهر بعد عبوسه . ونجا الوطن المقدي . وأديت  
واجبي . فلنبادل بعضنا غراما شريفا طاهرا . وحبا عذريا .

فآه ايتها المحبوبة كم كنت افكر في نلاقينا بعد تلك  
الحرب الشمواء وهل نلتقي

ولكن هي العناية الالهية تساعد المخلص وتقوى مركزه

وانا قسما بحبنا الطاهر . والسماء اللازوردية . والشمس والقمر  
لا يتأثر مثل على هذا الوطن الاسيف الذى سوف يلاقى حتفه  
ان لم يلاقى قائدا رشيدا . ولا يفرك ظواهر النبل التى على  
وجوههم فان بين تلك الجوانب قلوبا كقلوب الذئاب واشهر  
وتحت تلك الثياب شراة النمر وفتكه وبين تلك الرؤوس  
عقول اشد حلكا من السواد .

فانا اسأل الله ان يبقى هذا الوطن وان يقيض له من  
ابنائهم من يقوده فى دجى المشاكل . وغوامض المسائل بيدرشيدة  
تعرف الصالح من الطالح . وذلك بعد موتى وأما غرامى أيتها  
الحبيبة ؟ غرامى الذى اقدسہ واعبده . انت تعرفين ذلك  
وبرهانى عيناي وقلبي . حر كاتى واخلاصى . وانت على علم  
من ذلك كله .

والان فاعلمى ان الانتخاب سيكون باكر . فبعيده سأقدم  
لايك طلبى لاكون زوجك فأنى على ما أرى صرت كنفوا  
لان اخطب الى نفسى ملاك وارسو الحارس . واجل غادة  
فى الوجود . والان أيتها الحبيبة آن الصبح ان ينبلع فيها بنا .

وموعدنا بعد غد في منزلكم حيث أقدم طالبا يدك .  
— ساعدك الله أيها الحبيب في انتخابك وقرائك . دعوة  
صادرة من قلب يحبك ويهواك والان الى الملتقى .  
أفترقا فسار سويسكى الى منزله مخترقا طريق جونسكى .  
فوجد جماهير الشعب ترد زرافات ووحدا . فعلم ان الانتخاب  
أيقظ الشعب وان ذلك الحيوان كما يلقيه اخوانه النبلاء قام  
ليطالب بحقوقه المهضومة .

## الفصل الثامن

— الانتخاب — ( سعادة الامة بعدل الامير )

أشرق فجر يوم الثامن من شهر فبراير سنة ١٩٧٦ وسكن  
وارسو لم يغمض لهم جفن . فقد قضوا ليلهم في احتفالاتهم  
بانتصار سويسكى على الازراك وانتهاء الحرب بسلام كما كان  
يود كل محب لوطنه .

وقد زادهم يقظة على يقظة ان في الغد سينعقد الديت

لا انتخاب ملك على بولاندا ليتدءون حياة جديدة غير حياتهم  
الاولى.

حياة متعلقة بذلك الذى سينتخبونه فان كان من أولئك  
النبلاء المتشبهين بعاداتهم القديمة كميخائيل ذلك الملك الضعيف  
لارادة . المسلم اموره الى نبلاء أضعف منه رأيا وأقل عقلا  
فأنهم ولا شك ملاقون حياة تبدأ بالاستبداد وتنتهى بالموت  
حياة بقضونها تحت نير الظلم يستغيثون ولا من مغيث  
أما اذا انتخب رجل من رجال الامة المحبين لخيرها .  
الساعين لمصالح الشعب . الساعين فى تقويض اركان الظلم .  
وأقامة معالم العدل فأنهم بلا شك سيجيئون حياة طيبة يكون  
لبولاندا منها الشطر الاوفر .

وعلى هذا فقد كان امر الانتخاب مهما جدا لدرجة ان  
وارسو ازدهمت بالوافدين من القرى والضواحي ليشاهدوا  
انتخاب ملكهم الذى عليه تتوقف سعادتهم أو مصيبتهم .  
سار الشعب كالسير المنهر فكان طريق جونسكى يتوج  
بذلك البحر الزاخر . المنتظر نتيجة الانتخاب بفروغ صبر .

وكان النواب يقدون كل بعربته فيفتح له منفذا في ذلك  
البنيان التماسك الى باب المجلس فيصعد .

دقت الساعة النصف بعد الثامنة فأقبلت عربية كان  
الراكب فيها ذلك الرجل العظيم « جون سويسكي »  
فما رآه الشعب حتى افتر عن فخر باسم وصاح قائلاً .

« ليحي سويسكي » ، « ليحي ملك اليوم » « ليحي منقذ  
الوطن » « يسقط الظلمة » وهكذا صار جون سويسكي  
كالعروس يزفها الشعب الى ان وصل الى باب المجلس  
فصعد وهو يقول ( ملك اليوم ياليتها تحقق فأقوم بأمتي ) ومن  
ثم اكتمل نظام الجلسة فنادى مناد بالانتظام .  
وقف الكانت سمو لندسكي فقال

ايها الاخوان

ان قضيتنا اليوم قضية امة . بل قضية شعب يصيح طالباً مكا  
يضع ذلك التاج على رأسه . فليكن الترو قائدنا . والاطمئنان  
رائدنا .

مستقبل الامة بيدكم فانتخبوا من تروا فيه الكفاءة لان

يتولي قيادتنا وايضع كل منكم رأيه في ورقة ويقذفها داخل  
هذا الصندوق .

وما انتهي الكونت من خطابه حتى فتح باب القاعة  
عنوة ودخل رجل لابس لباسا يدل على انه احد العمال من  
الشعب فأدار وجهه ثم استقر نظره اخيراً على رئيس المجلس  
الكونت سمولنسكي فقال له

ايها الكونت وياايها النواب

انا ان تصديت للكلام هنا في هذا المكان اى حيث  
لا يدخل الى النبلاء والنواب فأما انساق اليه بقوة الواجب  
لان اطهر سمعة الشعب وشرف الامة التي انا منها  
وان هذا المجموع الواقف تحت نوافذ المجلس منتظر

بفروغ صبر ان ينتخبوا ما قد اتخبه هو ايضا  
انعرفون يا حضرات النبلاء من هو؟ انه اوفدني لاقول  
لكم انه انتخب ذلك الذى انقذ بولاندا . ونجهاها من عدوها  
المخيف وكان في كل وقت نظير صداقة للشعب والامة . انه  
جون سويسكي ايها السادة

وفي الوقت نفسه سمع من تحت نوافذ المجلس اصوات  
كهدير الامواج وهي تصيح « ليحي جون شوييسكي »  
« ليحي مليك بولاندا »

وكان العامل يتكلم ويطن هذه الاقوال . والشم ظاهر  
على وجهه مشرب بالحياء والشرف وهو يتكلم ببساطة . الى  
أن قال

والجيش ايها السادة مقرر على انتخاب سوييسكي اذ كيف  
لا ينتخبه وهو قائده الذي كان له الفضل الاكبر في انتصاراته  
الاخيرة

وانا اتحنى تاركاً لضميركم الحر ان تساعدوني انا مندوب  
الشعب الذي به حياه الامة في تحقيق فكرته .

وهنا قام الكونت رئيس المجلس فقال

ايها الرجل بل يامندوب الشعب

اعلم ان الانتخاب سيكون سرياً وسيُنتخب باغلبية الاصوات

فقل للشعب ان يطمئن فان الحق سيجري مجراه .

والآن ايها الاخوان ابتدأوا في الانتخاب فان الوقت

قد حان لان يجلس على عرش بولاندا أمير يقودها لان تكون  
مملكة حرة عاملة وقد نطق الكونت بكلامه هذا وهو مطمئن  
على مركزه فانه علم ان الشعب في جانب سويسكى والعاقل  
من انخذ الكفة الراجحة

كتب كل نبيل ما يريد في ورقة وقذفها في الصندوق .  
وابتدا الرئيس يفتح لاوراقا .

فقال الاغلبية جون سويسكى اذ نال ١٢٣ صوتا . ونال  
الكونت تيروفسكى اغنى اغنياء بولاندا ٩٢ صوتا اما الخمس  
والاربعين الباقين فكانوا متفرقين بين النبلاء الآخرين .

وفي الحال اطل الكونت سموانسكى من شرفة المجلس  
ونادي الشعب قائلا « تم الانتخاب وصار سويسكى ملكا  
على بولاندا .

وفي هذا الوقت انتشر الخبر في وارسو انتشار الهباء  
فقامت لهذا الخبر وقعدت والبولاندين يصيحون صياح الجذل  
الفرح المستبشر بالمستقبل . كأن الله ضمن لهم السعادة ولم  
يدروا ما خبا لهم الحظ في صفحات كتابه .

تم الامر كما اراد الشعب وتوج سويسكى ملكا على  
بولاندا ولم يلبث ان اعلن رغبته في اتخاذ قرينة له تشاركه  
سعادة الحياة وان يتقدم له الكونت سمونسكى ايخطب  
ابنته صوفيا.

فكان فرح الشعب في هذا الوقت مضاعفا فقد اقترن  
سويسكى بصوفيا ملاك وارسو التى يحبها الشعب من كل  
قلبه . ويريد لها الخير

اماعن يوم اقترانهما فلانسل عن فرح الشعب وجبوره  
بهما .

وعلى كل حال فان سويسكى نال ما تمنى واقترن بصوفيا  
فابتدا يكدا لسعادة مملكته . وكيف لا وهو مدين لها بحياته  
وعزه وشرفه . ونجاحه فى غرامه .

كيف لا يكدا ليرقيها وسعادتها مرتبطة بسعادته . اذا  
سقطت سقط . وان ارتقت ارتقى . والملوك بامهم . فكان  
سويسكى فى حياته مثالا للملك العادل المحب لرعيته . المتفانى  
فى احيائها . المرخص حياته وكل ذلك فى سبيل ارتقاها

أما الشعب فقد كان في مدة حكمه غارقة في الرقاعة والعرز  
لا يقاسي آلاما كالتى كان يقاسيها في الزمن المضى قبل انضرائب  
والجبايات . وسمي سميه الشكور في اقامة جيش بدافع عن  
المملكة وحدودها .

واقام على ولايات مملكته ولادة من على مشربه اتخذوا  
العدل ديدنا لهم فسمدت البلاد واستراح الشعب وكنت اذا  
جلت في بولاندا لا تسمع الا ايات المدح تنظم عمودها في ذلك  
الليلت الذي لم يترك لحظة تمضي من حياته دون ان يسمى ليربح امته  
ويهبأ ما لان تكون مملكة قائمة برجالها .

ونا اذا كنا نريد . مثالا للحياة الطيبة فان حياة سويديسكى  
كانت خير مثال .

فقد كانت حياته المنزلية مثال الدعة والسكون . وانه  
ليغبط على ما هو فيه كما قال « قاسم امين »

اذا كان هناك انسان جدير بالحسد فهو الزوج المحبوب  
اما حياته الخارجية فكانت اتم الحياة اذ لاخير من ملك  
ارتكز عرشه على القلوب . وسويديسكى ذا عرش ثابت بحبه

شعبه وجندد وعلى هذه الحالة استمرت بولاندا ترتقى تحت  
أمره تلك البائلة الكبيرة فكانت بين الممالك التي يخاف جانبها  
الى ان وقعت تلك الحروب الكبيرة بين تركيا وروسيا فكانت  
بولاندا مسرحاً للخراب اذ لا ويل اكبر من الحرب .  
فكان لابد من التهامها وحيث ان كاترين كانت تري  
الممالك الاوربية فاتحة عيونها فشاركت معها النمسا والمانيا  
وهكذا تعاون الثلاثة على ابتلاع بولاندا ومحو اسمها  
من عالم الوجود واضافة اثارها من الدنيا .  
ولم ذلك ؟

لانها وقفت في سبيل احدها من فضربتها الضربة القاضية .  
وانما كان ذلك لان القائمين بالامر فيها كانوا من انال ميخائيل  
ضما في الارادة فوقموا ولم يكن هناك رجل كسوييسكي  
يقود جيشا كجيشه سنة ١٦٧٦

وعلى هذا كانت نهاية بولاندا فمفت اثارها وراحت  
ضحية الجشع الاستعماري . والطمع الانساني وتألبت عايتها  
ثلاث دول من خيرة الدول التي تتشدد بادعاء المدينة

والبر بالانسانية فأماتها

ايه بولاندا : تأكدي ان لك في قلوب المحبين الحقيقيين

للانسانية اثر لا يمحي . وذكر الابل ما كر الجديدان وما

هبت الصبا

## التقسيم الاخير

ماريا وكاترين وفريدريك

أتى على بولاندا حين من الدهر بعيد حديثنا الاول عنها فمالبث ان

احتل نظام الامور فيها . وقام كل نبيل في قصره كانه ملك متوج يدبر

ارضه كانه سيد العالم المطلق

اما سكان مقاطعته فكانوا كالعبيد يمثل بهم تمثيلا فظيما كانه خالقهم أو أكثر

وعلى هذه الحالة صارت بولاندا الى الفهقرى خطوة كبيرة ورجعت

الى الوراء شوطا كبيرا

اما ملكها فقد اتقى مقاليد اموره الى وزرا لاهم لهم الا الحصول

على الوظيفة حتي اذا تم ذلك لهم تمسكوا بأهداب الترف والتعاق للملك

محبذين كل عمل مقرظين لكل مشروع سواء اردى البلاد او اماتها .

وهم يكنزون الذهب اكواما فكانت الحالة تشبه تلك التي كانت

تركيا عليها ايام رب القسطنطينيه . مشبع الحوت من لحوم البرايا . نزيل  
سلاميك عبد الحميد خان .

وفي هذه الآونة كانت دول اوروبا واقفة لها كلسانير تنتظر  
وقوع الجزذ لتقسمة .

قال جمال الدين الافغانى لاسلطان عبد الحميد يوما « ياأمير المؤمنين  
ان الحيوانات التى تأكل لا تؤكل »

وياها من كلمة جمت فأوعت من جميع الحسك ما لو فقه له عبد الحميد  
لبقى للآن متربعا على عرش الخلافة .

وعلى هذا النسق وقعت بولاندا فان الدول لما علمت انها ضيفة  
الجانب . ذليلة القدر . لايمكنها حماية نفسها بجيش يدافع عنها ويزود  
عن حوضها . اجتمعت ثلاثة منها ففستها بينها كمنظمة اللحم تمسها  
ثلاث كلاب كابه .

اما هذه الدول فقد كانت روسيا وعلى رأسها كاترين الثانية التى  
يقول عنها المؤرخون انها روح نابليون تجسمت في جسم امرأة .

والمانيا وملكها فريدريك الأكبر خير من تولى ادارة الأمر  
فيها بل اعظم ملك تربع على دست امورها

والنمسا ومليكتها ماريا تريزا التى كانت من خير الأميرات يذكرها

التاريخ بكل خير لدفاعها امام فريدريك فى الحروب السياسية

وقد استوزرت كاترين وزيرها تومكين الذى كان اول من أبهظ

فى فكرتها محاربة الدولة العلية .

فأخذت كافرين في حربها هذه جميع الولايات التي في شمال الإلفان  
حتى أنها كادت تنقص من كثرة ابتلاعها الولاية أثر الولاية

فوجب إذا عليها أن تشركها تلك الممالك الأخرى الواقعة لها  
المرصاد ليتمكنها أن تنال ما ورثها في جهة أخرى «أطعم القم تستحي العين»  
فمقدت لذلك محالفة ثلاثية سرية . ضمت وأياها النمسا والمانيا  
فقسمت بولاندا التقسيم الذي انتهى بابتلاعها وضياعها .

ان ألحق تلك المحالفات التي بمقدما أولئك الاوغاد السفلة المستعبدین  
بالانسان . المقربین على استبداده . الذين يشيدون دولا لتظم على جدار  
من دماء الانسان وعظامه .

بأي حق أكون اما في منزلي . ويكون حالي مختلا . ونظامي . مثلا  
فيدخل الغريب بجراوته مدعيا انه يريد اصلاح ذات الين .  
ماله ومالي . لم لا يدعني . مستريحا بعيداً عنه وعن صفاته وتعديه ان  
يقول ان ذلك باسم الانسانية والمدنية . ورعاية الحقوق .

الا لعمرى ان الانسانية لبريئة من قوم ادتيا . يدخلون بيوت غيرهم  
بدعوى أنهم يريدون اصلاحها .

خير لهم ان يتركوا البيت لصاحبه . والبلاد لاهلها . والاطوان  
لسكانها . ولا يدخلونها فيعكرون عليهم صفو الحياة ولذة المعيشة . يدخلونهم  
وكانهم رسل عزرائيل يتقدمهم الموت . ويسير بين أيديهم الردى .

مالك انت أيها الاجنبي النازح ليصلح وطنا غير وطنه . المتطلع لبلاد  
غير بلاده . الا خير لك ان تهتم ببلادك قبل ان ترحل الى أخرى لتسلب

اهلها الراحة او تحتلها باسم الانسانية وهى براء منها .  
لنرجع الى حديثنا الاول اذ تركنا بولاندا تقسم كلنا سقط المتاع .  
قام من وسط البولاندين جورج كوسكيوسكي ذلك الرجل الذى  
يلقبه التاريخ بالبولاندى الوطنى الحر .

وانه لجدير بهذا اللقب واكثر فانه قام فى وجه ثلاث دول كبار  
تعتبر من اعظم دول الارض مكانة . واستمر يجاهد ويناضل لا يعرف  
اليأس الى قلبه سبيلا . فكأنه كان متحققا ان الله ناصره فلم تنزع ثقته  
بنفسه وبجيوشه .

ولكن الذى اسقطه ودك عزيزه هو مقاومته لثلاث دول مرة  
واحدة فكان كناطح صخرة لبوهنا .

وعدا ذلك فان سعي روسيا المتواصل فى ضم القطعة التى اصابها  
من التقسيم كان قاطعا لآمال جورج وامانيه .

فقد انتشر العمال الاداريين الروسين فى انحاء المملكة وزاد استبدادهم  
وعم حتى ضج الآهلون لذلك وقاموا كلهم يتألمون لحريتهم المفقودة ولكن  
اليد الاستبدادية كانت شديدة الوطء فضربتهم بيد من حديد اخذت  
بها انفاس تلك الوطنية المستعرة . وأطفأت بمر انفاسها ذاك اللهب المتقد .  
ولكن الوطنية الحقة لا تمحى ابدا ولو عاكسها الدهر . وناوأها  
الزمن . ولا ريب فى ذلك فانه واجب محتم يجب على الانسان حفظه  
وكتابته بحروف من نار خصوصا اذا كان وطنه مهانا ضاعت حقوقه .  
ومن هذا الصنف كان وطنية كوسكيوسكي فانه لبث يناضل حتى

قبض عليه في مؤامرة قتل برصاص الروس وراح ضحية حب الوطن  
ولا زال البولنديين يقاومون الى اليوم حكم اولئك الممالك الثلاث  
ويجهدون في التخلص من استبدادهم . ولكن لم يحن الوقت الذي  
تستقل فيه بولاندا المدمومة الذكر . والتي سوف تسمع عن قريب بانها  
نهضت فزعزعت القصر في سان بطرسبرج . والامبراطورين في برلين وفيينا .  
فيا أيها البلد الامين الذي قضى عليه الانسان بالزوال وحكمت عليه  
سنة الجشع الاستعماري بالضياح . فذهب ضحية لسفالة الانسان ودنائه .  
يؤمن ان ذكراك لا ينساها انسان . ولا يخطر لك ان تلك الحوادث  
الى انتهت بانمحائك يطويها عالم النسيان وان البلاد المستعبدة اذا ذكرت  
مصيبتك هانت مصائبها .

وانت ياروح جورج كوسكيوسكي خير وطني مثل على مرشح الفضيلة  
دوره باتقان تأكد ان حبك وذكراك راسخة في الازهان . لانسلي ماكر  
الجديدان .

وكيف نفني وانت قدمت نفسك قربانا لوطنك المقدس . وفدى  
لبلاك المحبوبة . فكنت خير مثال يتبع في الوطنية . وصار الكل يلهمج  
باسمك والشكر قرينه . والمدح خدنه .

اي كوسكيوسكي نم في قبرك واسترح فقد صنعت الواجب وزيادة  
جاهدت الى ان قتلت في سبيل حب الوطن

فان ذكر الوطنيين فانك في مقدمتهم . وان عد الشهداء فانك في أولهم  
قيأياها القائمون في وجوه الاعداء . المتقدين حمية لانقاذ اوطانكم

من البلاء . اذا اردتم مثالا صادقا تتخذوه لكم في اعمالكم آية وشعار .  
تخذوا حياة جورج كوسكيوسكي فانها ذخيرة من خيرة الانار . ولقنوها  
ابنائكم من بعدكم . وزروهم بحفظونها في قلوبهم . لتعلمهم حب الوطن  
وكيف يكون . بل كيف يسهل فيه شرب كأس المنون .  
ودانتون يقول « اذا اردت ان تغلب فاقدم ثم اقدم ثم اقدم »  
ومصطفى كامل كان ينادي « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس  
مع الحياة » جاهدوا في سبيل بلادكم . فان مصر تناديكم ان اعملوا على  
خيرها وكونوا بيدا واحدة حتى يمكنها ان ترتجي منكم خيرا فاستغل استقلالها  
مشهودا يذكره العالم والتاريخ والله يجازي كل على قدر عمله

(نمت)